الأثـــر المشـــرقي
في رسائـــل ابن أبـي الخصـــال
رؤيـــة نقديـــة

دكتـــور

محمد عبد العزيز عبد العزيز عبد الحميد

أستاذ الأدب والنقد المساعد

في كلية اللغة العربية بالمنصورة

جامعة الأزهـــر

الايميل الجامعي

Moohammedabdelaziz.32@azhar.edu.eg

The oriental effect

In the letters of Ibn Abi al-Khasal

critical vision

Doctor

Mohammed Abdul Aziz Abdul Aziz Abdul Hamid

Assistant Professor of Literature and Criticism

At the College of Arabic Language in Mansoura

Al Azhar university

University email
Moohammedabdelaziz.32@azhar.edu.eg

عنوان البحث/ الأثر المشرقي في رسائل ابن أبي الخصال. رؤية نقدية.

دكتـور/ محمد عبد العزيز عبد العزيز عبد الحميد

أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بالمنصورة ،جامعة الأزهر

الايميل الجامعي

Moohammedabdelaziz.32@azhar.edu.eg

ملخص البحث باللغة العربية

يقوم البحث على بيان الأثر المشرقي في رسائل ابن أبي الخصال، وقد تنوع بين معارضات نثرية، وآراء نقدية في بعض الكتاب، واحتذاء مذهب بعضهم في الكتابة، الأمر الذي يكشف مدى عنايته بآثار المشارقة، ويشهد له بالتفوق الأدبي والنقدي، وقد قسمت البحث إلى خمسة مباحث، تناولت في الأول: معارضـة الكاتـب لـبعض مقامـات الحريـري، وفـي الثـاني: معارضـته ملقـى الـسبيل للمعـري، وفـي الثالث:معارضته بعض خطب ابن نباتـه. وفـي المبحث الرابـع:آراء نقديـة فـي بعض كتـاب المـشرق، كـشفت فيـه عـن رأي الكاتـب النقـدي فـي أبـي إسـحاق الـصابي، والـصاحب بـن عبـاد، وبـديع الزمـان الهمذاني، لافتا النظر إلى تأثره بمذهب بديع الزمان الفني في الكتابة. وجاء المبحث الخامس:الشعر؛ بينت فيه تأثر الكاتب بأشعار المشارقة استشهادًا، وتضمينًا، وحلًا، وتلميحًا، وهو ما يكشف عن بروز الأثر المشرقي الواضح في رسائل ابن أبي الخصال. ثم كانت الخاتمة؛ وفيها أشرت إلى ما انتهت إليه فصول الدراسة من نتائج. ثم ختمت البحث بفهرس للمصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

الكلمات المفتاحية: الأثر المشرقي، النثر الأندلسي، الرسائل الفنية، ابن أبي الخصال، رؤية نقدية.

Summary of the research in English

. The research is based on the statement of the Eastern impact in the letters of Ibn Abi Al-Khasal, and it varied between prose oppositions, and critical opinions in some writers, and following the example of some of them in writing, which reveals the extent of his care for the effects of the East, and testifies to his literary and monetary superiority, and the research has been divided into five sections. In the first, I dealt with the writer's opposition to some of the shrines of Al-Hariri, in the second: his opposition to Al-Ma'arri's path, and in the third: his opposition to some of the sermons of Ibn Nabatah. Then the fourth topic was: Critical opinions in some of the book Al-Mashreq, in which it revealed the opinion of the critical writer on Abu Ishaq Al-Sabi, Al-Saheb bin Abbad, and Badi' Al-Zaman Al-Hamadhani, pointing to his influence on Badi Al-Zaman's artistic doctrine in writing. The research came V: hair; It showed the writer's influence on the poems of Al-Mashareqah by quoting, implying, solving, and alluding, which reveals the emergence of the clear Eastern influence in the letters of Ibn Abi Al-Khisal. Then there was the conclusion; In which I referred to the results of the study chapters. Then the research concluded with an index of sources and references, then an index of topics.

Key words: Oriental influence, Andalusian prose, artistic messages, Ibn Abi Al-Khasal, critical vision.

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد

فظاهرة تأثير المشرق في الأدب الأندلسي من أهم الظواهر الفنية البادية في أدب الأندلسيين، وقد لاقت اهتماما واضحا من عناية الدارسين، والنتاج الفكري والأدبي هو خير دليل على استمرار التواصل بين المشرق والأندلس. وقد كثرت الدراسات التي تحدثت في هذا الجانب، وجلها- إن لم يكن جميعها- وجهت اهتمامها إلى الشعر، لذا يحاول هذا البحث أن يعطي جانبا من جوانب النثر الفني حقه من الدرس والبحث، فينشط لدراسة الأثر المشرقي في رسائل ابن أبي الخصال.

وقد شغل ابن أبي الخصال مكانة متميزة في الأدب الأندلسي، وحظي بنصيب وافر من اهتمام النقاد قديما وحديثا، فهو من أعلام الكتابة في الأندلس، تمتاز كتاباته بجودة الرصف، وإحكام النسج، وعمق المعنى، وطرافة التصوير، وفيها من المعاني البارعة، والأفكار الناصعة، والصور الفاتنة البديعة، ما يشهد له بالبراعة، والتمكن من الصناعة.

إنَّ وضوحَ الأثر المشرقي في رسائل ابن أبي الخصال وثراءه، وتنوعَه؛ بين معارضات نثرية، وآراء نقدية في بعض الكتَّاب، واحتذاء مذهب بعضهم في الكتابة، الأمر الذي يكشف مدى عنايته بآثار المشارقة، ويشهد له بالتفوق الأدبي والنقدي- كان دافعا مهما لدراسة هذا الموضوع، يضاف إلى ذلك: تعميقُ الإحساس بالتلاحم الحميم بين أدب المشارقة والأندلسيين، والكشفُ عن مدى هذا التلاحم، ووضع أيدينا على أشكال التواصل بين كلا الأدبين، والوقوف على القيم الجمالية والفنية التي ينطوي عليها نثر ابن أبي الخصال، واستجلاؤها، والتحاور مع أبعادها وموضوعاتها.

وإن سبقتْ هذه الدراسةَ دراساتٌ وجَّهَتْ اهتمامَها للنثر الأندلسي، فدرست بعض رسائل الكاتب أو وقفت مع بعض معارضاته، كأدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري للدكتور فايز عبد النبي القيسي، والنثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله للدكتور علي بن محمد، والتيار المشرقي في الأدب الأندلسي للدكتور حسن عباس، وغيرها، فهي وقفة عامة، لم تتئد لتشمل الأثر المشرقي فيها، فكانت هذه الدراسة.

وقد قسمت البحث بعد هذا التقديم إلى تمهيد وخمسة مباحث، وخاتمة. تناولت في التمهيد- بإيجاز- التأثير المشرقي في الأدب الأندلسي، شافعا ذلك بالوقوف مع ابن أبي الخصال ومنزلته في الأدب الأندلسي، وقيمة رسائله الفنية.

أما المبحث الأول: فتناولت فيه(مقامة لابن أبي الخصال عارض بها الحريري في بعض مقاماته)، صدرته بكلمة في فن المعارضة، ثم تناولت هذه المقامة بالدراسة والتحليل والنقد. وفي المبحث الثاني: تحدثت عن(معارضة الكاتب ملقى السبيل للمعري) بالدراسة والتحليل والنقد، وفي المبحث الثالث:(معارضة الكاتب بعض خطب ابن نباتة). ثم كان المبحث الرابع:(آراء نقدية في بعض كتاب المشرق) كشفت فيه عن رأي الكاتب النقدي في أبي إسحاق الصابي، والصاحب بن عباد، وبديع الزمان الهمذاني، وذلك من خلال رسالة فاضل فيها بين الصابي وبديع الزمان، وقد تناولت هذه الرسالة في بحث سابق(١) ووقفت معها بالدرس والتحليل والنقد، واقتصرت هنا على الأثر المشرقي، لافتا النظر إلى تأثر ابن أبي الخصال بمذهب بديع الزمان الفني في الكتابة. وجاء المبحث الخامس (الشعر)؛ بينت فيه تأثر الكاتب بأشعار المشارقة استشهادًا، وتضمينًا، وحلًا، وتلميحًا، وهو ما يكشف عن بروز الأثر المشرقي الواضح في رسائل ابن أبي الخصال. ثم كانت الخاتمة؛ وفيها أشرت إلى ما تضمنته هذه البحوث من حقائق، وانتهت إليه من نتائج. ثم ختمت البحث بفهرس للمصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله،

وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على سيدنا محمد وآله.

دكتور/ محمد عبد العزيز عبد العزيز

أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر، فرع المنصورة.

(١) بعنوان:(بديع الزمان الهمذاني في النثر الأندلسي)، منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة (علمية، محكمة) العدد الثامن والثلاثون، الجزء الأول١٤٤٠هـ-٢٠١٩م، من ص٢٠٧-٢٢٠. وهنا أشير إلى ما يتصل بالأثر المشرقي فقط.

تمهيـــد:

أولا- التأثير المشرقي في الأدب الأندلسي

كانت الأندلس تنظر إلى المشرق نظرة الإكبار والتقدير، وكانت هذه النظرة واضحة جلية، برزت في كل مناحي حياة الأندلسيين، خاصة الأدبية؛ فقد استحوذ أدب المشارقة على اهتمام الأديب الأندلسي، وكان الشرق قبلته التي يتوجه إليها في أدبه، فهو عنده غاية التفوق الأدبي والنضج الفني، وقد ولَّى وجهه شطره، ينهل منه، ويسير خلفه، ويقتفي أثره، ذلك أنه يراه النموذج الأمثل الذي ينبغي أن يقتدى به. وهذا ما جعل ابن بسام صاحب الذخيرة يعلن عن ذلك في كتابه، فيقول: "إلا أن أهل هذا الأفق، أبَوْا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة؛ حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أوْ طنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوْا على هذا صنمًا، وتلوْا ذلك كتابًا محكمًا"(١).

وكان طبيعيا أن يتأثر الأندلسيون بالمشارقة في حياتهم، وأفكارهم، وأساليبهم الأدبية والفنية، والسبب في ذلك هو انتماؤهم إلى هذا المشرق، فهو أرض الأجداد، ومنبع الحضارة الإسلامية، ومهد تراثهم الأول(٢)، وقد دفعهم ذلك إلى محاكاتهم، ومعارضتهم، ومحاولة التفوق عليهم، فإذا كان الرافد والمعين واحدا، فالتلاقي والتشابه بين كلا الأدبين- في أكثر الأحيان- أمر وارد لا محالة.

يقول الدكتور إحسان عباس: "ومن الخطأ الكبير ألا يخايلنا عند دراسة الأدب الأندلسي إلا هذا الاستقلال في الشخصية الأندلسية، لأننا ندرس أدبًا يستند إلى حضارة مشتركة في الشرق والغرب، فلو لم يكن التقليد مقصودًا لكان اكتشافه أيضا محتومًا"(٣).

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة: "إذا كان دارس الفلسفة لابد له أن يعتمد قبل خوضه غمارها على رصيد من عميق الإيمان حتى لا يضل، فإن على دارس الأدب الأندلسي- إذا أراد أن يزنه حق وزنه- ألا يخوض فيه قبل أن تكتمل له أسباب النضج في دراسة الأدب المشرقي وهضمه، لأنه حينئذ لن يفتح فاه دهشة كلما وقع على نص أندلسي بهيج شعرا أو نثرا، وإنما سوف يجد له – غالبا مثيلا أو قرينا أو أصلا مشرقيا"(٤).

بل إن الدكتور شوقي ضيف يذهب إلى أبعد من ذلك، فيقول: "جمدت الأندلس عند صياغة المشارقة ولم تستطع أن تضيف إليها من جديد...إنه ليس هناك إلا التقليد والمحاكاة، وأن يحتذي الكاتب على نموذج مشرقي، فإذا هو يصنع رسائل كرسائل المشارقة، أو يصنع مقامة

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسّام الشنتريني،تحقيق: د. إحسان عباس١١/١/١، دار الثقافة، بيروت١٩٧٩م.

(٢) ينظر: الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير: د. محمد رجب البيومي ص٢٧-٤٠، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الملك سعود الإسلامية، السعودية ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي(عصر سيادة قرطبة):د.إحسان عباس ص ٣٩، ٤٠، دار الثقافة، بيروت، الثانية ١٩٦٩م.

(٤) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه:د. مصطفى الشكعة ص١٦، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان السابعة ١٩٩٢م.

كمقاماتهم"(١). ويقول: "والحق أنك مهما قرأت في آثار الأندلسيين فستراهم يرجعون دائما إلى أصول مشرقية، يقلدونها، ويستمدون منها"(٢).

لقد كانت الأندلس تتطلع إلي المشرق في إخلاص ورغبة، وكبرى مناها أن تحرز نفائس مؤلفاته، وروائع آثاره، وأن يرتشف أبناؤها من حياضه، وتنهل من موارده، بل وتعد ذلك من دواعي الفخر، فإذا تشابهت التربة الأدبية من حيث النوع والبذرة والماء، فإن تشابه الثمرة أمر محتوم لا محيص عنه ولا محيد(٣).

إن التقليد والاحتذاء أمر وارد، بل هو من المسلمات، ولم يكن لعجز الأندلسيين عن الابتكار والتجديد، وإنما هو لشعور الانتماء الكامن في نفوسهم إلى المشرق، والرغبة في استمرار الارتباط به، والبقاء على عَبَقِهِ يفيح في كل حياتهم. وهذا لا يجعلنا ننكر على الأدب الأندلسي بيئته المتميزة، فقد نشأ فيها شعراء مبدعون، وكتاب بارعون، لكننا نهدف إلى تعميق الإحساس بالتلاحم الحميم بين أدب المشارقة والأندلسيين، ووضع أيدينا على أشكال التواصل بين كلا الأدبين(٤). وهو ما تسعى إليه هذه الدراسة.

لقد راح الأندلسيون يقلدون ويعارضون المشارقة إعجابا بأدبهم، ورغبة في التحدي وإظهار التفوق، وقد احتفوا بهذا الأدب- شعرا ونثرا- وتأثروا به، فراحوا ينهلون من موارده، ويرتشفون من حياضه، وينسجون على غراره، ويقتفون روائع آثاره(٥).

ثانيا- لماذا ابن أبي الخصال؟

احتل ابن أبي الخصال(٦) مكانة فريدة بين الكتاب الأندلسيين، في عصر كان يزخر بأعلام الكتاب والشعراء والنقاد، شهدوا له بالبراعة، والإحسان في الصناعة، في ميدان اليراعة، وأشادوا بعلو كعبه في ميدان الأدب، ورفعته في رياض الفضل والنسب.

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي: د. شوقي ضيف ص٣٢٥، دار المعارف،القاهرة، الثامنة١٩٧٧م.

(٢) السابق: ص ٣٣٠.

(٣) ينظر: الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير: ص٣٢.

(٤) ينظر:التيار المشرقي في الأدب الأندلسي: د. حسن عباس ص٩، دار الحضارة للطباعة، القاهرة ١٩٩٤م.

(٥) ينظر: بديع الزمان الهمذاني في النثر الأندلسي، للباحث، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد (٣٨)، ج١، ١٤٤٠هـ-٢٠١٩م، ص١٨٦، ١٨٧.

(٦) الوزير الكاتب الشاعر أبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي، كان متقدما في الآداب، عالما بالأخبار، عني بالحديث، وله شعر يؤكد على مقدرته في الصناعتين، وَزَرَ للأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين. توفي مقتولا(٥٤٠هـ). ينظر في ترجمته: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان: الفتح ابن خاقان، تحقيق: د.حسين يوسف خريوش٥١٨/١، مكتبة المنار، الأردن، الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م. الذخيرة: ٧٨٦ /٢/٣، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي لابن الأبار ص١٤٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨م. المُغرِب في حلى المغرب: ابن سعيد الأندلسي، تحقيق: د.شوقي ضيف،٦٦/٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤م، وغيرها.

يقول ابن بسام-وهو معاصر لابن أبي الخصال: "وهو اليوم بحيث لا تشير الأصابع إلا إليه، ولا تنطوي الأضالع إلا عليه، وله بيان لا يتعاطاه ناظم ولا ناثر، وإحسان لا يبلغ مداه أول ولا آخر"(١). وهو عند ابن خاقان "حامل لواء النباهة، الباهر بالروية والبداهة"(٢).وينقل ابن الأبار على لسان أبي القاسم بن حبيش قوله عن ابن أبي الخصال: "وأما البلاغة فإليه انتهت، وعليه قصرت، وبموته فقدت"(٣). وقيل فيه أيضا:"لم ينطلق اسم كاتب بالأندلس على رجل مثل أبي عبد الله بن أبي الخصال"(٤).ولمكانته الأدبية في الكتابة خلع عليه ابن سعيد لقب "رئيس كتاب الأندلس"(٥). وغير هؤلاء كثير ممن يشهدون له بعلو منزلته، وارتفاع مكانته في رياض الفضل والأدب.

ترك ابن أبي الخصال تراثا نثريا خصبا يشف عن أديب ناقد متميز، وجاءت رسائله ثرة غنية، تكشف عن شخصيته من جوانبها الثقافية والأدبية، وعلاقته بإخوانه من الكتاب والأدباء، وبعضها يفصح عن طبائعه وأخلاقه، وقد تنوعت أغراضها في الشوق والحنين، والوصية والشفاعة، والشكر والثناء، والتهنئة والعزاء، والذم والهجاء، والوصف والرثاء، والشكوى، والعتاب، وغيرها من الموضوعات التي تكشف عن ثراء محصوله النثري وتنوعه، فكانت تراثًا أدبيا زاخرا، يشهد بتمكنه في الصناعة، ويعلن عن تفوقه في ميدان اليراعة، وصفه المراكشي بقوله: "ولأبي عبد الله هذا ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه، ونصبوه إماما يقتفونه"(٦).

لم يمنعه تفوقه الأدبي، وتميزه بين كتاب عصره من أن يقتفي أثر المشارقة، بل كان ذلك دافعا لأن يحذو حذوهم، فتأثر بهم تأثرا واضحا، واحتفل بأساليبهم، فعارض بعضهم، ومنهم الحريري في بعض مقاماته، والمعري في ملقى السبيل، وابن نباتة في بعض خطبه، كما أثبت رأيه النقدي في بعض الكتاب كالصابي والصاحب وبديع الزمان، واستعان بالشعر المشرقي-في عصوره المختلفة حتى عصره- في رسائله، بل كان من الكتاب الذين تأثروا بطريقة بديع الزمان في الكتابة.

وفي هذا كله ما يعكس عناية ابن أبي الخصال بالأدب المشرقي، ومتابعته إياه متابعة دقيقة، ومحاولته تمثل هذا الأدب في نتاجه الفني، فبدا واضحا في كتاباته، مؤكدا على مدى التواصل الفني بين الأدبين، كاشفا عن مقدرته الفنية والأدبية والنقدية، والصفحات التالية تكشف عن ذلك.

---

(١) الذخيرة: ٧٨٧/٢/٣ .

(٢) قلائد العقيان: ٥١٨/١.

(٣) المعجم لابن الأبار : ص١٥٠ .

(٤) السابق: ص ١٥١.

(٥) رايات المبرزين وغايات المميزين لابن سعيد، تحقيق: د. محمد رضوان الداية ص١٨٨، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الأولى ١٩٨٧م.

(٦) المعجِب في تلخيص أخبار المغرب:عبد الواحد المراكشي، تحقيق: محمد سعيد العريان، ص ٢٤٠، القاهرة ١٩٦٣م.

المبحث الأول- مقامة لابن أبي الخصال عارض بها الحريري في بعض مقاماته

أولا - كلمة في فن المعارضة

يلجأ الأديب- شاعرا أو ناثرا- إلى نص قديم أو معاصر- شعرا أو نثرا- فيبني عليه عمله شكلا ومضمونا، وهذا ما يطلق عليه المعارضة، وإن كان الشكل أساسًا في المعارضات فالمضمون أولى ثم أولى. إن النص الجديد يستحضر روح العمل الأول بكل أبعاده ومضامينه، كما يستحضر مضرب المثل مورده، فيدور النص الجديد في فلك سابقه: في مناسبته، وبنائه، وموضوعه، بل ومعانيه، وصوره، وأخيلته، وهذا هو عين المعارضة(١).

وبواعث المعارضة كثيرة منها:الإعجابُ بالجانب الفني والصياغة الممتازة(٢)، وإظهارُ البراعة، والقدرة على التفنن في القول، والرغبة في التحدي والمغالبة، وتشابه المواقف، وغير ذلك(٣). وترجع أهمية المعارضة إلى أنها تكشف عن روح التواصل الأدبي والفني، وتربطنا بالتراث- إذا كان النص المعارَض من التراث- فنجد التواصل الدائم، والارتباط الوثيق، بما يمحو الفجوة، ويقرب الشقة بين العصور الأدبية.

والمعارضات الشعرية وإن كانت فنا قديما مشرقي النشأة، فإن المعارضات النثرية ظاهرة أندلسية النشأة، وقد شاعت لدى الكتاب الأندلسيين في القرنين الخامس والسادس الهجريين، فكثيرا ما يستثير نص نثري إعجاب بعض الكتاب فينبري لمعارضته في أسلوب يشف عن قدرة على المحاكاة،ورغبة في التفوق وإثبات الذات، معبرا عن دهشته بهذا النص طرافة منحى، وبراعة طرح ومعالجة،ومجسدا رغبته في التفوق عليه فنيا(٤).

يقول الدكتور إحسان عباس:"اتسعت النماذج التي أصبح النثر الأندلسي قادرا على محاكاتها وتعددت، إذ أصبح التراث المشرقي لدى الناثر الأندلسي يضم طرائق سهل بن هارون، والجاحظ، وكتاب القرن الرابع الهجري، وبخاصة بديع الزمان الهمذاني، ثم رسائل المعري ومقامات الحريري؛ وفي باب الخطب أصبحت خطب ابن نباتة هي النموذج الرفيع الذي يُحتذى، وكاد كل كاتب يجد أنموذجه المفضل لدى واحد أو غير واحد من كتاب المشارقة، ولكن لا ينكر استقلال الكتاب الأندلسيين في الجزئيات ومحاولتهم التجديد في اختيار الموضوعات"(٥).

---

(١) ينظر:التيار المشرقي في الأدب الأندلسي: ص٣٠. والمعارضة هي "أن ينشئ ناظم أو ناثر نصا على غرار نص آخر بدافع من الدوافع يتفق معه في الموضوع أو الروح والاتجاه ملتزما بالبحر والقافية وحركة الروي إذا كانت المعارضة في الشعر أو مختلفا معه في شيء من ذلك". من حديث المعارضات الأدبية: د.عبد الوارث الحداد ص١٣، مطبعة السعادة، القاهرة، الأولى ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

(٢) ينظر: تاريخ النقائض في الشعر العربي: د.أحمد الشايب، ص٧، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الثانية١٩٥٤م.

(٣) ينظر:المعارضة في الأدب العربي:د.إبراهيم عوضين ص٣٥ وما بعدها، مطبعة السعادة القاهرة، الأولى١٤٠١هـ- ١٩٨٠م. وينظر: التيار المشرقي في الأدب الأندلسي ص٥٣ وما بعدها.

(٤) ينظر: الحوار الأدبي بين المشرق والأندلس، المتنبي والمعري نموذجين: د.أيمن محمد ميدان، ص١٦٧، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ٢٠٠١م.

(٥) تاريخ الأدب الأندلسي(عصر الطوائف والمرابطين):د.إحسان عبّاس، ص٢٨٤، دار الثقافة، بيروت، السادسة ١٩٨١م.

وابن أبي الخصال من الكتاب الذين تأثروا بالتراث المشرقي وعُنوا به عناية واضحة، وبين أيدينا ثلاث معارضات عارض بها ابن أبي الخصال ثلاثة من فحول كتاب المشرق، وهي: مقامة عارض بها الحريري في بعض مقاماته، معارضته (ملقى السبيل) للمعري، ومعارضته بعض خطب ابن نباتة، وهي نماذج فريدة تؤكد على حسن اختياره، وتكشف عن براعته.

ثانيا- معارضة ابن أبي الخصال بعض مقامات الحريري

في رسائل ابن أبي الخصال مقامة طويلة تحت عنوان: "وله-رحمه الله- مقامة عارض بها الحريري في بعض مقاماته"(١).استهل الكاتب مقامته بالوصف حيث نجد الحارث بن همّام-راوي المقامة- في إحدى قرى الريف، وبينا هو كذلك إذ أمطرت السماء مطرا غزيرا، فجعلت تسحُّ ولا تشحُّ، وطفقت تُرِيقُ ولا تَسْتفيقُ، ولم تبقَ للأرض غُلّة ترتشف بلَّة، حتى انقشع المطر، وشكر الناس ربهم على كرم السماء.

وفي أثناء ذلك يجد الحارث ثلة من الناس قد التفوا حول شيخ في خيش، "قد تنكر للعيان، وطمس أعلام العرفان، فحدجتهُ العيون، وخلجتهُ الظنون"، وبينا هم كذلك،"إذ رفع صوتا جهوريًا، ونضْنَضَ لِسانًا عبقريًا، بكلام عذب"، "فكلّ أرمَّ، وقطع ما كان به من همّ"، ثم بدأ هذا الشيخ يخاطب الناس محرضا لهم على العطاء، مرغبا إياهم في جزاء المحسنين، وراح يستميل قلوبهم بما لديه من لسان ذلق، ولفظ أنيق، متوسلا بصغاره الذين يتناغون سهدا، ويتضاغون جهدا، ويعانون المسغبة، حتى استدر عطفهم وأفرغ ما في جيوبهم، "فلم تبق قلنسوة إلا زُحزحت، ولا عَبْرةٌ إلا سُفحت، ولا مُبْهَمةٌ من الصرر إلا فُتِحت" فطلع سعده الغائب، وانثالت عليه الرغائب من كل جانب، والشيخ يتلقف، ولا يتوقف(٢) فما زال الحارث يرمقه، وسهام العطاء ترشقه، ولما حل الغروب، وفارقه القوم، اختلى بالشيخ حتى وقف على ميْنه، وعرف ختْله وشَيْنَهُ، وعلم أنه أبو زيد، ولما رآه أبو زيد صوب نحوه سهما، وقال له انتسب وإلا فاحتسب، فعرف أنه الحارث، فعانقه وُدّا، واستحال الهزلُ جِدا(٣).

ثم يعرض عليه الحارث أن يبيت ليلته عنده، ويبيت السروجي ليلته عند الحارث، وقد جاءه بكل ما لذ وطاب من أطايب الطعام والشراب، حتى إذا جنَّ الظلام، وغلبَ النوم على النّوّام، يصحو الحارث ليجد الشيخ قد ذهب، تاركا وراءه رقعة شعرية يشكر الحارث فيها على حسن ضيافته له، فيهب الحارث مسرعا عسى أن يلحق بالسروجي، حتى علم أنه ممتهن، وبما شرب في الحان مرتهن، قد حبسه صاحب الحان، فهجم الحارث على صاحب الحان وأغلظ له في الكلام حتى ألقي عليه بالمودة والسلام، ثم راحا في وصف طويل لإيوان في بستان كأنما رصع بالخدود، أو اقتطع من

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٢٠- ٤٤٩.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٢٠-٤٢٤. حدجته: نظرت إليه بعد رؤعة وفزْعة. لسان العرب (حدج) خلجته: تنازعت فيه وتجاذبت واختلفت. السابق (خلج). نضنض: حرك.أرمَّ:سكت. يتضاغون: يصيحون من الألم والجوع والمسغبة.

(٣) السابق: ص٤٢٦، ٤٢٧.

جنان الخلود(١). فلما طال الكلام، ألقى الحارث عليه بالملام، وهدده بالخصام ثم سأله عن صاحبه أبي زيد فدله على مكانه وأخرجه من محبسهِ، وافترقا من بين يديه، وناما ليلتهما في نعمة وعافية، فيطلب الحارثُ إلى أبي زيد أن يسمعه شيئا من شعره، فأنشا شعرا يشكره فيه على صنيعه، ويعترف فيه بحسن جميله. قال الحارث بن همام: فأقمت وعبر، وأتممت وقصر، وكانت تلك خاتمةَ القوْلِ، وزادَ الحوْلِ" وبذلك تنتهي المقامة(٢).

ثالثا- رؤية نقدية

جاءت مقامة ابن أبي الخصال خلْوًا من العنوان على خلاف مقامات الحريري التي تُوجتْ جميعها بعنوان وثيق الصلة بموضوعها، وهي تقوم على مشاهد عدة، تتخللها أحداث كثيرة، وهذا ما يجعلنا نرى أنها ليست معارضة لمقامة واحدة بعينها، وإنما أكثر من مقامة من مقامات الحريري- كما سيتضح- ولعل هذا ما يمكن أن نفهمه من العنوان الذي جاءت تحته المقامة:(وله- رحمه الله- مقامة عارض بها الحريري في بعض مقاماته)(٣). **فما مدى صلتها بمقامات الحريري؟**.

١- شخصيتا الراوي والبطل

الشخصية في المقامات عنصر مهم من عناصر بناء المقامة، وبدونه لا تكتمل، فشخصية الراوي تروي أحداث المقامة، وتمهِّد لها، وتهيّئ المقام لظهور البطل، وأحيانا تشارك في الأحداث، وأحيانا أخرى تقوم بدور البطولة فيها.

وشخصية الراوي عند ابن أبي الخصال: الحارث بن همام، وشخصية البطل: أبو زيد السروجي كما عند الحريري في مقاماته، وهي الشخصية المحورية التي تدور حولها أحداث المقامة، وهناك الشخصيات الثانوية تساعد البطل على إتمام دوره، وتسهم في الأحداث بالقدر الذي رسمه الكاتب لها، وهذا النوع من الشخصيات كثير في المقامات، ومنها في مقامة ابن أبي الخصال: أهل البلدة التي تروى فيها المقامة، وصاحب الحان.

وشخصية الحارث عند الحريري وكذا عند ابن أبي الخصال شخصية مشغولة باكتساب الأدب مذ ميطتْ عنها التمائم، ونيطتْ بها العمائم، فهو لا يفتأ يغشى مَعَانَ الأدب، ويُنضِي إليها ركاب الطلب، وقد اتخذه شرعة ومنهاجا، فلم يكن يقطع واديًا، ولا يشهد ناديًا، إلا لاقتباس الأدب المسْلِي عن الأشجان، المغْلي قيمةَ الإنسان، لذا تعلق بأبي زيد الأديب، ولا يزال يفتش عنه حتى يظفر به، يجد فيه ضالته المنشودة، وأمنيته المفقودة، فكان لهوى ملاقاته، واستحسان مقاماته، يرغب في الاغتراب، ويستعذب السفر الذي هو قطعة من العذاب(٤).

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٣٨ .
(٢) السابق: ص ٤٤٩.
(٣) ينظر: السابق: ص٤٢٠.
(٤) ينظر: شرح مقامات الحريري للشريشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المقامة الحلوانية١/٧٦، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة،١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م. المعان: المنزل.

يقول الحارث مؤكدا على تعلقه بالأدب: "فقلت: يا أبا زيد إن لهذه الأيام أوابد كأوابد الوحش فقيدها بالسهام، وخلدها في الأوهام، وأعقلها بالمأثورِ ووكِّل المنظوم بالمنثور، ليُعرف يومنا بسيماه، ولا يشتبه به سواه، فإن أشكل نِجَارُه ، لم تشكل ناره، وإن ذهب زمانه لم يذهب مكانه"(١). ثم أنشده من شعره، وافترقا.

والحارث دائم البحث عنه لعله يظفر بنفثة من أدبه، يقول لما ولّي عنه السروجي ولم يجد له أثرا: "فما زلت في خبر ألتقطه، وغيث أهبطه، وزهر أعتبطه، أصافح مقلةً بمبْسِم، وأَخصِفُ حافرًا بمَنْسِم، حتى مخضْتُ عن زُبْدَتِهِ حَقينَه، واقتدحتُ من زناد الشكَّ يقينَهُ"(٢).

وشخصية البطل أبي زيد السروجي هي تلك الشخصية التي تبحث عن المال بكل وسيلة، وهو يظهر في المقامات في هيئة رثة، قد وَخَطَ الشيب رأسه، وحنى الدهر صعدته، وابتزت الأيام جدته، يتلون في هيئات مختلفة حسبما تقتضيه الحيلة التي يحتالها، والفريسة التي يقتنصها، وهي حيل اصطنعها بغية استدرار عطف القوم ونيل عطاياهم؛ "ومن تمام بناء شخصية أبي زيد أن ينكر شخصه، ويغير شكله، حسبما تقتضيه الحيلة التي يصطنعها، والمكرة التي يفتعلها"(٣). وهو عالم أديب، واسع المعرفة غزيرها، من فرسانِ اليراعةِ، وأربابِ البراعةِ، ذو بلاغة رائعة، وآداب بارعة، وبديهة حاضرة، وذكاء متوقد، وهذه هي الوشيجة التي جمعت بينه وبين الراوي إلى نهاية المقامات.

فالشخصيتان في النصين-المعارَض والمعارِض- متشابهتان إلى حد كبير أو لم يختلفا عن مهمتهما في المقامات، وقد أجاد ابن أبي الخصال في هذه الناحية واستطاع أن لا يخرج عن الخط الذي رسمه الحريري للشخصيتين.

ويتميز الحريري عن ابن أبي الخصال في أنه جعل من بطله نموذجًا حيًا للعصر الذي كان يحيا فيه، وعبَّر به عن فئة الأدباء الذين تنكر لهم المجتمع، وأبعدهم عن ميادينه الجادة، فلم يجدوا بدًا من احتراف الكدية "وعلى الرغم من أن نموذج المقامات أدبي في نشأته وفي سماته، فإن له مع ذلك جانبًا واقعيًا، فهو صورة لفئة البائسين طرداء المجتمع، ممن رزقوا مقدرات إنسانية وفنية لم يتح لهم مجتمعهم سبيل إفادة الآخرين بها، والنفع منها، لأنه كان مجتمعا تدور قيمه على سلطان المال، فاتخذوا مواهبهم أحابيل للرزق، استغلالا لآفات المجتمع نفسه، فهم يتكسبون بالأدب من المجتمع، ينتهزون فيه غفلات الدهماء على طريقة تقابل تكسب الشعراء بالأدب لدي الصفوة من الحكام، ذلك أنهم كانوا يزيفون بالحيل، كما كان المداحون من الشعراء يتلمسون نواحي استدرار العطاء من الحكام، فيمتارون معروفهم بالكذب في مدائحهم"(٤).

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال ص ٤٤٨. النّجار: الأصل.

(٢) السابق: ص ٤٣٥. خصف: رقع، المنسم: خف البعير. الحقين: حقن اللبن في السقاء صبه فيه ليخرج زبدته، والحقين: اللبن. لسان العرب(حقن).

(٣) النموذج الإنساني في أدب المقامة: د.علي عبد المنعم، ص١٠٩، الشركة العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة١٩٩٤م.

(٤)النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة: د.محمد غنيمي هلال ص٢٢، ٢٣، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٧م.

وقد أجاد ابن أبي الخصال حينما جعل الحارث- راوي المقامة-مشاركا في الأحداث إلى حد كبير، حيث تبدو إيجابية هذه الشخصية وتفاعلها مع الأحداث، حين نراه يسهم في إتمام الأحداث وتطورها، والدفع بحركة البطل إلى الأمام، وهو في هذا أقرب إلى الهمذاني من الحريري، إذ جعل الهمذاني عيسى بن هشام راوية مقاماته يشارك في الأحداث بشكل واضح، بل جعله بطلا لبعضها(١).

٢- بروز الكدية والحيلة في مقامة ابن أبي الخصال

إن نزعة الكدية(٢) والاستجداء والحيلة التي يتسم بها بطل المقامات باديةٌ جليةٌ في هذه المقامة، ذلك أن المقامة تقوم- في أغلبها-على الكدية والاستجداء والإلحاح في الطلب، والتوسل لذلك بأنواع الحيل الثقافية والأدبية، وهذا واضح بيّن في مقامة ابن أبي الخصال.

يقول الحارث حاكيا عن أبي زيد :"ولما استقرت الحلْقة وارتصَّ بنيانها...توسطها هِمّ في هِدم، وشيخ في خيش، قد تنكر للعيان... ثم قال: أيها الجمع الأريض، والسؤدد العريض، والنفر البيض، والنائل المستفيض... ألا يدٌ تطول؟ ألا حرٌ يَنُول؟، ألا مُعْطٍ من يسار؟... ما هذا الجمودُ والأكفُّ التي لا تجود؟ .. ما لكم عن زاهدٍ راغب، وجاهدٍ لاغب، وأبي كلِّ أُزَيْغبٍ ساغب، عهدي بهم منذ ثلاثٍ يتناغَوْن سهدا، ويتضَاغَوْن جهدا، ومن قبل ما علق جناح رحمة بأبٍ يَحُفّهم، وأنهجَ شعار رأفة كان يلفُّهم فصفرت وِطَابُهم، واصفرَّت أكفُّهم، فما بقاؤهم... ثم جعل الشيخ ينتحب، ويستقيد الدمع فيصحب، ولا مغيض إلا الخيش، ولا داء إلا العيش، قال: فلم تبق قَلنسوة إلا زُحزحت، ولا عَبْرة إلا سُفحت، ولا مُبْهَمَة من الصرر إلا فُتحت، فطلع سعده الغائب، وانثالت عليه الرغائب.. والشيخ يتلقف، ولا يتوقف، ويلتقط ما يسقط، ويدخر ولا يؤخر...الخ"(٣).

إنها بعينها حيلة السروجي في مقامات الحريري، وهو هو السروجي بكذبه وميْنه، وهذه الحيلة سار فيها ابن أبي الخصال خلف الحريري في المقامة التفليسية: "حكى الحارثُ بنُ همّامٍ، قال: عاهدْتُ اللهَ تعالَى مُذْ يفَعتُ، أنْ لا أؤخِّرَ الصّلاةَ ما استَطَعْتُ...فاتّفَقَ حينَ دخلْتُ تفْليسَ، أن صلّيتُ معَ زُمْرَةٍ مَفاليسَ، فلمّا قضيْنا الصّلاةَ، وأزْمَعْنا الانفِلاتَ، برزَ شيخٌ بادِي اللَّقوَةِ، بالي الكُسوَةِ والقُوّةِ، فقالَ: عزمْتُ على منْ خُلِقَ منْ طينَةِ الحُريّةِ، وتفوّقَ دَرَّ العصبيّةِ، إلا ما تكلّفَ لي لُبْثَةً،

---

(١) ينظر: مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المقامات: الأسدية ص٢٦، والبغدادية ص٤٩، والموصلية ص٧٨، والمجاعية ص١١١، والحلوانية ص١٦٠، وغيرها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٢م.

(٢) أكدى: ألح في المسألة، وكدى الرجلُ وأكدى: قلّ خيره وعطاؤه، وأكدَى المطر: قلّ ونَكِد، وفي التنزيل العزيز:(وأعطى قليلاً وأكْدَى) (النجم، الآية (٣٤)، أي: قَطع القليل، والكدية والكادية: الشدة من الدهر، والكدية:الأرض الغليظة الصلبة. لسان العرب(كدا). فالكلمة تحمل معنى الشدة والصلابة، وشدة الحاجة.

(٣) رسائل ابن أبي الخصال ص٤٢٣،٤٢٤.الأريض: أرض فلان: صار خيّرا متواضعا فهو أريض. الأزيغب: تصغير الأزغب، يقصد أولاده الصغار. ساغب: أصابه الجوع مع التعب والمشقة. يتضاغون: يصيحون من الألم. صفرت وطابهم: لم تبق لهم حلوبة يشربون لبنها، كناية عن الحاجة الشديدة.

واستمَعَ مني نَفثَةً، ثمّ لهُ الخِيارُ منْ بعْدُ، وبيدِهِ البذْلُ والرّدُّ، فعقَدَ لهُ القومُ الحُبَى، ورسَوْا أمْثالَ الرُبى، فلمّا آنَس حُسْنَ إنْصاتِهِمْ، ورَزانَةَ حَصاتِهِمْ. قال: يا أولي الأبْصارِ الرّامِقَةِ، والبَصائِرِ الرّائِقَةِ، أمَا يُغْني عنِ الخبَرِ العِيانُ، ويُنْبئُ عنِ النّارِ الدخانُ؟ شَيبٌ لائِحٌ، ووهْنٌ فادِحٌ، وداءٌ واضِحٌ، والباطِنُ فاضِحٌ، ولقدْ كُنتُ واللهِ ممّنْ ملَكَ ومالَ، ووَلِيَ وآلَ، ورفَدَ وأنالَ، ووصَلَ وصالَ، فلمْ تزَلِ الجَوائِحُ تسْحَتُ، والنّوائِبُ تنْحَتُ، حتى الوَكْرُ قَفْرٌ، والكفُّ صفْرٌ، والشّعارُ ضُرٌّ، والعيشُ مُرٌّ، والصّبْيَةُ يتَضاغَوْنَ من الطّوى، ويتمنّونَ مُصاصَةَ النّوى، ولمْ أقُمْ هذا المَقامَ الشّائنَ، وأكشِفْ لكُمُ الدّفائِنَ، إلا بعْدَما شَقيتُ ولُقيتُ، وشِبْتُ ممّا لَقيتُ، فلَيتَني لمْ أكُنْ بَقيتُ... قال: فازْدَهى القومُ بذَكائِهِ ودهائِه، واختلَبَهُمْ بحُسْنِ أدائِهِ مع دائِهِ، حتى جمَعوا لهُ خَبايا الخُبَنِ، وخَفايا الثُّبَنِ"(١).

إن التشابه جد واضح بين المقامتين، والحيلة هي بعينها التي اتبعها البطل واحتال بها على القوم، وهي من الحيل التي طالما لجأ إليها السروجي في مقامات الحريري، حتى خلبهم بحديثه، وأفرغ جيوبهم في جيبه، ونال بها عطايا القوم.

٣- موضوع المقامة

الموضوع الذي يغلب على مقامة ابن أبي الخصال هو الوصف، وهو من الموضوعات التي خاضتها المقامة، فبطل المقامات دائم السفر والترحال لا يستقر بمكان حتى يتركه إلى مكان آخر، وفي المقامات عامة يستهل الراوي المقامة بوصف مسرح الأحداث، فيتحدث عن نفسه، واصفا حالته، أو يتحدث عن رحلة قام بها، واصفا المكان الذي رحل منه، والمكان الذي حل فيه، أو مكان التقائه بالبطل، أو يصف مجلس أدب، أو يصف جماعة التقى بها في مكان ما، وجل المقامات تبدأ بوصف الذهاب والإياب، ووصف رحلة الراوي والبطل، ويبدو تأثر المقامات بأدب الرحلة واضحا من هذه الناحية(٢).

والوصف في مقامة ابن أبي الخصال واضح بيّن، أفاض فيه ابنُ أبي الخصال، ففيها وصف الريف، ووصف المطر، والناس وحسن استقبالهم له وبهجتهم به، ووصف اجتماعهم حول أبي زيد، ثم وصف البستان، ووصف الحان... الخ، ولعل الكاتب يحاول من وراء هذا الوصف أن يثبت براعته في الوصف، فرسم لنا عدة مشاهد في مقامة واحدة، واستطاع أن يجمع بينها في إطار درامي يقنع المتلقي، وقد أجاد في ذلك، لذا بدا واضحا أن ابن الخصال لم يعارض مقامة واحدة من مقامات الحريري -كما ذكرت- وإنما جاءت مقامته معارضة للمقامة الدمشقية، والتفليسية من مقامات

---

(١) شرح مقامات الحريري للشريشي: المقامة التفليسية ٤/١٠٥-١٢٢. مفاليس: فقراء. اللقوة: داء يأخذ في الوجه. والفُواق: ما بين الحلْبتين. نفثة: كلمة. الحبى: عقد اليدين على الركبتين. رسؤا: ثبتوا. الربا: الكُدى. تسحت: تستأصل الأموال. تنحت: تأخذ. الوكر: قعر المنزل. يتضاغون: يصيحون. لُقيتُ: أصابتني لَقْوة، وهو داء يأخذ في الوجه.

(٢) ينظر:الرحلة في الأدب العربي:د.شعيب حليفي:ص٩٧، ١٠٣(كتابات نقدية)الهيئة العامة لقصور الثقافة،القاهرة ٢٠٠٢م.

الحريري، والوصف يبدو واضحا في بعض مقامات الحريري، كالمقامات (الفرضية، التفليسية، الدمشقية، والعمانية(١).

يقول ابن أبي الخصال على لسان الحارث واصفا نزول المطر: "فبينما نحن بخُناصرة إذ نشأت بحريَّةٌ، فجعلت تسحُّ ولا تشحُّ، وطفقتْ تُريقُ ولا تستفيق، وتثجم ولا تنجم؛ فما أخذت في الذُّهول، حتى قضتْ حق الوُعور والسهول، ولم تبق للأرض غلة ترتشف بلة، ثم انجابت عن السماء انجياب الرِداء، وسالت الأنهار وما متع النهار: فأفاض الحاضرُ في شُكر من أفاضها"(٢).

ويقول واصفا الحان: "فانتهى بي إلى إيوان، في بستان، كأنما رصع بالخدود، أو اقتطع من جنان الخلود، وإذا الرياحين تنضد، والأزاهر تخضد، وأزرار الحباب على لبَّات الأباريق تعقد، وكأنما خرت هناك أسلاك، أو انتثرت أفلاك، فما شئت من بدر قد انتهى، ووليد كالسها، وشمس تستلب النهى، من كل متفضل تعشى محاسره، ومتبذل تبدو محاسنه..."(٣) الخ.

إن وصف الحان في مقامة ابن أبي الخصال وما به من أدوات الشراب يأخذنا إلى وصف الحان في المقامة الدمشقية من مقامات الحريري، يقول الحريري على لسان الحارث يصف السروجي في الحان: "إلى أن قيل: إنه مذ دخل عانة، ما زايل الحانة ... فادّلَجْتُ إلى الدّسكَرَةِ، في هيئةٍ منكّرَةٍ، فإذا الشيخُ في حُلّةٍ ممصّرَةٍ، بينَ دِنانٍ ومِعصَرَةٍ، وحولَهُ سُقاةٌ تبهَرُ، وشُموعٌ تزْهَرُ وآسٌ وعبْهَرٌ، ومِزْمارٌ ومِزْهَرٌ، وهوَ تارةً يستَبْزِلُ الدِّنانَ، وطَوْراً يستَنطِقُ العِيدانَ، ودَفعةً يستنشِقُ الرَّيْحانَ، وأخرَى يغازِلُ الغِزْلانَ(٤). فابن أبي الخصال كان يصف الحان وما به من أدوات الشراب والسقاة وغير ذلك، وهو في ذهنه وصف الحريري له، وقد سار على نهجه في دقة الوصف، ووصف الجزئيات، والتفصيل، وإن تميز عنه في براعته في تنسيق هذه المناظر كلها في مقامة واحدة طويلة على نحو متسق متوائم لا يخل بأحداث المقامة.

إن مقامة ابن أبي الخصال مقامة وصفية تقوم على الوصف، وهي وإن جاءت معارضة لمقامات الحريري فهي تختلف عنها في طولها الواضح، على حد قول الدكتور إحسان عباس:"وتختلف هذه المقامة عن مقامات الحريري في طولها وميل منشئها إلى أن يجرب قلمه في وصف عدة مقامات، فهناك منظر في الريف وآخر في بيت الحارث، ثم ثلاث قصائد متتابعة، ثم تفتيش عن السروجي، ثم وصف الحان، وحوار طويل بين الحارث ورب الحان، ثم اللقاء والحوار بين الحارث والسروجي الذي ختمت به الأحداث، ولا يلتزم هذا المنهج إلا كاتب لا يود أن ينشئ عدة

---

(١) ينظر: شرح مقامات الحريري: ٣٣/٢، ١٥٠/٢، ١٠٥/٤، ٢٨٩/٤.

(٢) رسائل ابن ابي الخصال ص٤٢١. خناصرة: اسم بلدة. بحرية: أي سحابة توشك أن تمطر. ثجمت السماء: أسرع مطرها ودام. انجمت: أمطرت بسرعة ثم أقلعت.

(٣) رسائل ابن ابي الخصال ص ٤٣٨ .

(٤) شرح مقامات الحريري للشريشي: ٣٣/٢، ٥٦، ٥٨. الدسكرة: بناء يسكنه الخمّار. ممصَّرة: مصبوغة بالمِصْرِ، وهي مادة حمراء يُصْبَغُ بها. دنان جمع دن، وهو نوع من الخوابي– الآنية- طويل الأسفل ضيقه.

مقامات متفرقة، وإنما هو ينشئ مقامة أو اثنتين ويحاول أن يعرض براعته في رسم مناظر متعددة يجمعها معا في مقامة واحدة"(١).

والمقامات التي بنيت على الوصف حتى يمكن تسميتها مقامات وصفية تشمل مساحة كبيرة من رقعة التأليف المقامي، ومنها مقامة أبي حفص عمر بن الشهيد، وبعض مقامات السرقسطي، ومقامة ابن أبي الخصال، إذ كان الوصف غرضها الرئيس الذي دارت حوله(٢). والوصف اتجاه عام في المقامات، وهو من الموضوعات المحببة إلى الكاتب المقامي، لا يترك فرصته تمر دون أن يغتنمها، وعلى هذا نجد جنوحا إلى الوصف لإظهار البراعة في سياق المقامة(٣).

٤- الأسلوب

إن أسلوب المقامات هو امتداد لأسلوب الكتابة في القرن الرابع الهجري، حيث كان التكثيف في فنون البديع المختلفة، والميل إلى الصناعة اللفظية، والمحسنات البديعية والإمعان فيها، والجري وراءها هو مقياس البراعة، وقد سار مؤلفو المقامات مع لغة العصر وأسلوبه، وتعمدوا ذلك إظهارا لمقدرتهم اللغوية، لذا "كان من الطبيعي ألا تنفصم المقامات عن العصر الذي نشأت فيه"(٤)، "ولا تعرف المقامة كمقامة، إلا بالتزامها للسجع والمحسنات البديعية"(٥).

والهمذاني وإن خفت وطأة هذا الأسلوب عنده، فقد اتخذه الحريري مذهبا، وحرض على استعماله. ومع هذا لا ينبغي أن تصرفنا هذه الصناعة اللفظية التي تعمدها الحريري في مقاماته عن هدفه في تصويره لنموذج حيٍّ يعبر عن واقع أليم، وهو شخصية أبي زيد السروجي الأديب الذي تنكر له مجتمعه، كما صرفت قدامى الفقهاء في أدبنا؛ فلم يروا في المقامات سوى أنها مجمع أمثال، وثروة لغوية، وبراعة تعبير، وقد أراد الحريري أن يجتذب جمهوره بتأنقه في صياغته، وقد نجح فيما أراد من رواج لمقاماته بتلك البراعة، وبذلك التجمل البالغ مدى التكلف أحيانا، إذ إن ذلك كان هوى العصر (٦).

والذي يتأمل مقامة ابن أبي الخصال يجد التشابه الواضح بينه وبين الحريري في التزام المحسنات البديعية، والحيل اللفظية، واللجوء إلى التضمينات، والإشارات والشخصيات التاريخية والأدبية التي يستعين بها في إثبات الفكرة، وترسيخ المعنى، من مثل قوله على لسان الحارث: "فقال:

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص ٣١٧ .

(٢) ينظر:فن المقامة في القرن السادس، د.حسن عباس، ص٢٤٧، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦م.

(٣) ينظر: السابق، ص٢٤٤.

(٤) نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي٦٥٦هـ : د.نبيل خالد أبو رباح، ص٣٣٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م.

(٥) أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة: د.محمد رشدي حسن، ص٢٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤م.

(٦) ينظر: النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة: ص٤٢.

الحمد لله الذي أعلن نجواك وبَيَّنَ شكواك، وعرضني لذمامك، وجعلني موضع إلمامك، فلو بيع رضاك، ببِيضِ النِّعم، وحُمْرِ النَّعَم، وطوق عمرو، وقرطي مارية، وقوس حاجب، ودرع قيس، وعمة أبي أحيحة، لما فات طلابي، ولا تخلص من أسبابي"(١). وهذا الأمر واضح بيَّن لمن يقرأ مقامة ابن أبي الخصال، كما هو واضح بيِّن في مقامات الحريري، ولا داعي للوقوف أمامه طويلا.

ولعل الفارق بين الأسلوبين هو أن أسلوب ابن أبي الخصال يبدو واضحًا مقارنة بأسلوب الحريري، إذ كانت العناية بالشكل في ذهنه وهو يصوغ مقاماته، مع التزام ابن أبي الخصال بصفة عامة بما التزم به الحريري في مقاماته من الناحية الأسلوبية.

٥- توشيح المقامة بالشعر.

برزت ظاهرة استرفاد الشعر في النثر بروزا واضحا في العصر العباسي في الرسائل الأدبية، والمقامات، والخطب، وكان جُل كتّاب هذا العصر يجمعون بين الشعر والنثر، فللشعر طاقات إيحائية، ودلالات وظلالٌ فنية وفيه من المعاني المبتكرة ما يتير في نفس المتلقي التأمل والدهشة والإمتاع.

والشعر في المقامات ظاهرة أساسية تتسق معها في شتى عناصرها الفنية، لغة ذات إيقاع وتأثير، تشكل عنصرا رئيسًا، وتساند الفكرة، وتؤكد المعنى، وتسهم في رسم ملامح شخصية البطل، ولها أثرها الواضح في المضمون المقامي، كما تتسق مع خصائص التشكيل النثري(٢).

وهو من سمات بطل المقامة، يكشف عن بلاغته وفصاحته، وحسن تصريفه للقول، ويتخذ منه حيلة لاستمالة القوم حتى يغدقوا عليه أموالهم وعطاياهم، وله في المقامة غاية رئيسة وهي إتمام المعنى وإبرازه، وترسيخ الفكرة في ذهن المتلقي، فضلا عن روعة التصوير، وعمق التأثير، وحسن الأداء، وجمال الإيقاع.

وقد استطاع ابن أبي الخصال أن يجاري الحريري في توشيح مقامته بالشعر الذي يتمم المعنى، ويرسخ الفكرة، وإن كان ابن أبي الخصال أكثر من الشعر في مقامته بدرجة واضحة، حتى إنه سطر ثلاث قصائد متتالية يعتذر فيها للحارث عن رحيله، وهذه القصائد تكشف عن شخصيته، وتبرهن عن فصاحته وبلاغته، كما تؤكد على فكرة المقامة(٣).

وكان من الممكن أن يستغنَى عن بعض هذا الشعر بحيث لو حذف لا يخل بمضمون المقامة، لكن ابن أبي الخصال أراد إثبات براعته في الكتابة في هذا الفن، لذا أكثر من الشعر الذي يثبت براعته في الصناعتين، وقدرته على ارتياد هذا الحقل النثري والتفوق فيه، فهو وإن كان كاتبا إلا أن له أشعارا تشهد له بتفوقه في هذا المجال، وإن كان بارعا في نثره أكثر من شعره.

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٤٤٠، ٤٤١ .

(٢) ينظر: الظاهرة الشعرية في مقامات بديع الزمان الهمذاني: د. مصطفى إبراهيم حسين، مجلة الدارة السعودية، العدد (٤)، السنة (١٤)، رجب، شعبان، رمضان ١٤٠٩هـ -فبراير، مارس، أبريل ١٩٨٩م، ص١١٨، ١٢٠ .

(٣) ينظر :رسائل ابن أبي الخصال، ص٤٣١ إلى ص ٤٣٤.

من نماذج الشعر في مقامة ابن الخصال: يقول الحارث: "والتفتُّ إلى أبي زيد فإذا ليس إلا عراء، وأرض وسماء، فكأنَّ الجن استهوتْه، أو الأرض طوتْه... ثم تأملتُ مقعده، وتتبعت مرقده، فإذا رقعته التي لا يكاد يخل بإثباتها، ولا يخلينا من عاداتها، وفيها(من مجزوء الكامل المرفل)(١).

يـــا حـــارِ يـــا ذا البـــر والشْـــ. شِـــيَم العـــذاب المستســـاغة
اعـــذر أخـــاك فلـــيس مـــن تلـــك الرفاهـــة والرفاغـــة
مـــا العـــيش إلا بلغـــة وأخـــوك لا يعـــدو بلاغَـــهْ
ولقـــد رحلـــت بسُـــحرةٍ والليـــل يلبســـني صِـــ باغهْ(٢).

إن الشعر هنا يسهم في الكشف عن شخصية أبي زيد، وفيه يعتذر عن رحيله ليلا، وقد جاء متمما للمعنى، مؤكدا على الفكرة، ويتصل اتصالا وثيقا بمضمون المقامة.

ومن ذلك- أيضا- قوله في نهاية المقامة:"فقلت: يا أبا زيد، إن هذه الأيام أوابد كأوابد الوحش فقيدها بالسهام، وخلدها في الأوهام، واعقلْها بالمأثور، ووكل المنظوم بالمنثور... قال فحمي تلهبًا، وأطلع في سماء القرطاس شهبا: (من السريع)

وصـــاحبٍ مـــا مثلـــه صـــاحبٌ جلْـــدٍ علـــى مـــر الليـــالي صـــبورْ
لـــم ألقَـــهُ فـــي العســـر إلا انثنـــى يُسْـــرا وأجْلَـــتْ كربتـــي عـــن حبـــورْ
وكيـــف لا أشـــكر مـــن جَـــدُّهُ ووُدّه أجهـض عنـي الثبـورْ(٣)...الـخ.

إن ابن أبي الخصال يعرف قيمة الشعر، ويدرك كيف يغزو القلوب، لذا أكثر منه في مقامته الطويلة، ليثبت مهارته الفنية وتفوقه الأدبي، ومتى وشَّحَ الكاتب نثره بالشعر غزرت لديه المواد، وترادفت عليه المعاني، وتواردتْ إليه الأفكارُ والصور طواعية.

وقد جاء الشعر في مقامته متصلا اتصالا وثيقا بمضمون النثر، متمما معناه، مؤكدا على الفكرة، متناسبًا مع السياق؛ وقد استطاع الكاتب أن يمزج بين الشعر والنثر في تواؤم وانسجام تام وكأنهما شيء واحد، فلا نشعر بتكلف أو تعنت، وقد أدى كل من الشعر والنثر الغرض المطلوب، بما يكشف عن عقليةِ الكاتب الواعيةِ، وثقافته الواسعة، وقدرته في تصريفِ الشعر في مكانه المناسب له(٤).

---

(١) المرفل: ما زيد على اعتداله سبب خفيف، فتصير (متفاعلن) (متفاعلاتن). ينظر: الكافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي تحقيق: الحساني حسن عبد الله، ص٦١، مكتبة الخانجي، القاهرة، الثالثة ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال، ص٤٣١.

(٣) السابق: ص٤٤٨.

(٤) ينظر نماذج أخرى للشعر في مقامة ابن أبي الخصال: رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٤٩. وغيرها.

المبحث الثاني- معارضة ملقى(١) السبيل للمعري.

يقول ابن خير الإشبيلي عند ذكره لمصنفات ابن أبي الخصال: "وجزء فيه ملقى السبيل، بنظم بديع، ونثر سنيع، في معنى الزهد الرفيع، من تأليفه أيضا"(٢). ولم يذكر أنها معارضة.

وفي تعريف القدماء بأبي العلاء تحت عنوان: معارضات المغاربة لملقى السبيل: "معارضة ذي الوزارتين محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي...لملقى السبيل"(٣). وفي رسائل ابن أبي الخصال: "وله معارضة لملقى السبيل"(٤).

ويقول الشنقيطي في فهرسته لما اختار من مخطوطات الاسكور يال مشيدا بهذه المعارضة: "ولعمري إن معارضة أبي عبد الله بن أبي الخصال لملقى السبيل إن لم تفُقْه فليست بدونه"(٥).

ويذكر ابن العديم أن للمعري كتاب "ملقى السبيل، وهو كتاب وعظ، يشتمل على نثر ونظم على حروف المعجم، على كل قافية فصل نثر، وأبيات شعر"(٦).

وقد أخلصه المعري للعظة وللزهد والاعتبار، وهو أول وعظ بالنثر والنظم على حروف المعجم في العربية، وهو من النمط المتميز نثرا وشعرا(٧)، فيستهل الكاتب وعظه بالنثر، ثم يتبعه بالشعر في المعنى نفسه، فينثر ثم يعقد هذا النثر شعرا، وهكذا حتى ينتهي من حروف المعجم على الترتيب.

أولا- البناء الفني

قلت: إن ابن أبي الخصال حذا حذو المعري في ملقى السبيل، فاستهل بالنثر ثم أعقبه بالشعر في المعنى نفسه، وسار على نهجه شكلا ومضمونا، ويتضح ذلك في السطور التالية.

١- من حيث الشكل:

أ- جاء النص الأول وهو (ملقى السبيل) للمعري يجمع بين الشعر والنثر؛ والتنويع بين الشعر والنثر من الظواهر البارزة في النثر الفني في العصر العباسي، في الرسائل الأدبية، والمقامات، والخطب، إذ كان جُل كتّاب هذا العصر يجمعون بين الشعر والنثر، فالكاتب يجيد قرض الشعر، وكذلك يبرع في تدبيج النثر، وظاهرة الكتاب الشعراء في العصر العباسي معروفة مشهورة، ويرجع

---

(١) ضبطها محقق رسائل ابن أبي الخصال بفتح الميم، وسماها رسالة. ينظر ص٣٧٠، وضبطها د.السعيد عبادة بالضم، ينظر :ملقى السبيل لأبي العلاء المعري(ت٤٤٩هـ)،شرح وتعليق:د.السعيد السيد عبادة، ص٢٢،دار البصائر، القاهرة، الأولى ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.وهي الطبعة التي اعتمدت عليها.وملقى السبيل: الشيء المطروح في الطريق.

(٢) فهرسة ابن خير الإشبيلي، تحقيق: بشار عواد معروف، ومحمود بشار عواد، ص٥١٥، دار الغرب الإسلامي، الأولى٢٠٠٩م. سنيع: جميل، لطيف، مرتفع، سنع سنوعا: طال وارتفع، وحسُن وجمُل.

(٣) ينظر: تعريف القدماء بأبي العلاء: تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، ص٤٥٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

(٤) رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٧٠- ٣٩٠.

(٥) ينظر: تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٥٥.

(٦) السابق: ص٥٣٨.

(٧) ينظر: ملقى السبيل لأبي العلاء المعري، ص ٧، ١٥.

إليهم الفضل في "أنهم قربوا الشقة بين الشعر والنثر، وخلقوا بذلك أسلوبا جديدا من أهم سماته سهولة الانتقال بين الأسلوبين: تارة بنثر الشعر، وأخرى بعقد النثر"(١).

لقد أدركوا قيمة الشعر وما يملكه من طاقات إيحائية، فحرصوا على توظيفه فنيا بما يثري معانيهم ويشد من أزرها، ويعضد أفكارهم ويبرزها للمتلقي حتى تقع منه موقع القبول، "فإنهُ للمنظومِ من البهجةِ في النفسِ، والوقْعِ في القلبِ ما ليسَ للمنثورِ"(٢).

والتنويع بين الشعر والنثر لقي استحسانا عند كتاب الأندلس، وشاع في نثرهم شيوعا واضحا مما جعل ابن عبد الغفور الكلاعي أن يعدّ ذلك سمة فنية بارزة في نثرهم، وسمّى هذا النمط من أنماط الكتابة بالمفصل لأنه "فصل فيه المنظوم بالمنثور فجاء كالوشاح المفصل"(٣)، وتوشيح النثر بالشعر والمزاوجة بينهما واضح بيّن في رسائل ابن أبي الخصال، فهو يعرف قيمة الشعر وأثره في النفوس، ساعده على ذلك ثقافته الشعرية الواسعة، واتصاله الوثيق بالتراث الأدبي والشعري السابق عليه لذا أكثر من الشعر في رسائله.

ب- جاءت ملقى السبيل مرتَّبة على حروف المعجم؛ استهل المعري بحرف الهمزة، واختتم بحرف الياء، والكتاب يضم إحدى وثلاثين موعظة(مسجوعة ومنظومة)؛"لأنه أتى على(اللام والألف) بواحدة، وعلى الذال باثنتين"(٤)،، وقد بدأها بالنثر المسجوع، ثم صاغ هذا النثر شعرا في المعنى نفسه، وهكذا حتى ينتهي من حروف المعجم.

ج- سار ابن أبي الخصال على خطى المعري في الشكل، فجاءت معارضتُهُ مرتبة على حروف المعجم أيضا، مستهلا بالنثر ثم أعقبه بالشعر في المعنى نفسه، لكنه اختلف معه في عدد الحروف، فالمعري جعل الهمزة والألف حرفين، في حين أن ابن أبي الخصال ذكر الهمزة فقط، وترك حرف الألف(٥). فجاءت الحروف عنده تسعة وعشرين حرفا. "فجاءت معارضته ناهجة النهجَ المشْرقِيّ في ترتيب الحروف الأبجدية"(٦).

---

(١) شعر الكتاب في القرن الرابع الهجري:د. وفيقة الدخيل ص٦٣٧، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

(٢) القانون في ديوان الرسائل: علي بن منجب الصيرفي ت٥٤٢هـ، تحقيق: د.أيمن فؤاد سيد، ص١١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

(٣) إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس: ابن عبد الغفور الكلاعي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، ص ١٤٨،عالم الكتب، بيروت، الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٤) مقدمة تحقيق ملقى السبيل لأبي العلاء المعري، ص٢٣.

(٥) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال ص٣٧٠. وقد عنون المحقق حرف الهمزة بـ (حرف الألف) ينظر ذات الصفحة.

(٦) معارضة ملقى السبيل للمعري في الأندلس:د.أيمن ميدان،مجلة كلية دار العلوم، القاهرة،عدد:(٣٩)،٢٠٠٦م، ص٢٧٩.

د- اختلف ابن أبي الخصال مع المعري في ترتيب الحروف، فالمعري ذكر(الهاء) أولا ثم (الواو) كما هو معروف في ترتيب حروف المعجم، أما ابن أبي الخصال فقد عكس هذا الترتيب وجاء بحرف (الواو) قبل(الهاء)(١).

هـ- مجموع الأبيات الشعرية عند المعري (مائة وثمانية وخمسون بيتًا)، أقلها بيتان، وأغلبها من ستة إلى ثمانية أبيات، وأكثرها عشرة أبيات(٢). في حين جاءت عند ابن أبي الخصال(مائة وخمسين بيتا). جاءت عنده كالمعري، أقلها بيتان، وأغلبها من ستة إلى ثمانية أبيات، وأكثرها عشرة أبيات(٣).

و- جاء النثر في النصين في صورة فقرات مسجوعة، قصيرة غالبا، وقد تطول أحيانا، وتراوحتْ فقرات النثر عند المعري بين سطر وأكثر إلى أربعة أسطر تقريبا، أما ابن أبي الخصال فقد زادت عنده الفقرات النثرية إلى خمسة أسطر، وبدا واضحا حرص الكاتبين على توشيح النثر بالألوان البديعية من سجع، وجناس، وازدواج، وطباق، وغيرها.

٢- من حيث المضمون

أ-جاءت ملقى السبيل ومعارضتها في الحكمة والموعظة الحسنة، والحض على طاعة الله تعالى، والتزود من التقوى والعمل الصالح، والدعوة إلى الزهد في الدنيا، وعدم الاغترار بها، والإقبال على الآخرة والعمل لها، وجاءت نثرا ونظما، يقول المعري في ملقى السبيل على حرف الهمزة : "كم يجني الرجل ويخطئ, ويعلم أن حتفه لا يبطئ. شعر:(من مجزوء الكامل المرفل)(٤).

إن الأنـــــامَ ليخطئـــــو نَ ويغفـــــرُ اللهُ الخطيئـــــة

كـــم يبطئـــونَ عـــن الجميـــ ـــل ومـــا منايـــاهمْ بطيئـــة(٥).

ويقول ابن أبي الخصال في المعنى نفسه مستهلا بحرف الهمزة:"الإنسانُ يُسيءُ، ويعجبهُ الأجلُ النَّسيءُ، يُذنِبُ ولا يَفِيءُ، ولا يُبالي ما يُفِيءُ:(من مجزوء الكامل المرفّل)

ويريـــــدُ أن يُجـــــزى بإحـــــ ـــسانٍ علـــى الـــنفس المُســـيئةْ

ويحـــــبُّ تعجيـــــلَ الثَّـــــوا ب، وعَقْـــــدُ توبتـــــهِ نســـــيئةْ

لَيســـــتْ تَفـــــيءُ وهمُّهـــــا فـــي كـــل غُـــنْم أن تُفِيئَـــهْ(٦).

فالمعنى واحد في الأصل والمعارضة، وهذا يؤكد عناية ابن أبي الخصال بالمعارضة والسير على منوال المعري شكلا ومضمونا، وهكذا حتى يأتي على حروف الهجاء كلها.

---

(١) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال: ص ٣٨٧.

(٢) ينظر: ملقى السبيل (حرف الهاء) ص ٢٤٨، ٢٤٩.

(٣) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال حرف (اللام ألف) ص ٣٨٩، ٣٩٠

(٤) المرفل: ما زيد على اعتداله سبب خفيف، فتصير (متفاعلن) (متفاعلاتن).

(٥) ملقى السبيل: ص ٩٨، ٩٩، ١٠٠ .

(٦) رسائل ابن أبي الخصال: ص٣٧٠، ٣٧١.

ب- قد يختلف ابن أبي الخصال مع المعري أحيانا، لكن يبقى المعنى العام الذي يدور حول الحكمة والموعظة الحسنة والتذكير بالآخرة هو المسيطر على المضمون.

يقول المعري في حرف الباء: "تفتقِرُ إلى الله الأرباب، وبالكافِر يَحُلّ التباب، وتنقطعُ بالموتِ الأسباب، وفي الخالقِ تَحارُ الألباب. شعر:(من مشطور الرجز)

دانـــــــتْ لـــــــربِّ الفَلَـــــــكِ الأرْبـــــــابُ
وبالكفـــــــــورِ يلحـــــــــقُ التَّبَـــــــــابُ
كـــــــمْ قُطِعَـــــــتْ بمِيـــــــتةٍ أَسْـــــــ باب
وافترقـــــــــتْ بحُكْمِهـــــــا الأحبـــــــابُ
وفـــــــي المليـــــــكِ حـــــــارت الألبـــــــابُ(١).

ويقول ابن أبي الخصال: "غَرَّتْها النهاب، وَدَبَغَتْ وقد حَلِم الإهاب، رُبَّ مَهيبٍ لا يُهاب، ومَرِيدٍ أحرقه الشهاب، وذاهبٍ بنفسهِ أعجله الذِّهاب:(من مشطور الرجز المقطوع العروض والضرب)

غرتـــــــكِ يـــــــا مغـــــــرورةُ النِّهـــــــابُ
دَبَغْـــــــتِ لَمَّـــــــا حَلِـــــــمَ الإهـــــــابُ
رُبَّ مهيـــــــبٍ ويْـــــــكِ لا يُهـــــــابُ
ومَـــــــاردٍ أحرقَـــــــهُ الشِّـــــــهابُ
وذَاهـــــــبٍ أَعْجَلَـــــــهُ الـــــــذهابُ(٢).

ويقول المعري في حرف الواو:"أما صحبكَ فقد غوَوْا، عبُّوا في المَوْرد فما ارتوَوْا، نادتهم الأقضيةُ حتى ثوَوْا، خَلَّوْا للوارثِ ما احتَوَوْا، طواهم القدرُ فانطوَوْا، ولاقتهم الآخرة بما نوَوْا.شعر:(من السريع)

لا تغـــوِ فـــي دنيـــاكَ مستهـــترًا فـــإنَّ أصحابـــكَ فيهـــا غَـــوَوْا
عـــنَّ لهـــم فـــي عَصْـــرِهم مـــوردٌ لـــو كـــان يُـــروِي مثلُـــهُ لارْتَـــوَوْا
نـــادتهمُ الأقـــدارُ: يـــا ســـاكني الـــ أرْضِ ألا تَثْـــوُونَ؟ حتـــى ثـــوَوْا
خلَّـــوْا أبـــاطيلهم واحتـــوى آخِـــذُ ميـــراثٍ علـــى مـــا حـــوَوْا
انتشَـــرُوا فـــي عَيْشِـــهمْ أعصـــرًا ثـــمّ طواهُـــم زمـــنٌ فانـــطَوَوْا
فلتُحْسِـــنِ النيـــةَ مـــن بعـــدِهمْ فالنـــاسُ يُجْـــزَوْنَ علـــى مـــا نَـــوَوْا(٣).

ويقول ابن أبي الخصال في حرف الواو: "الملوكُ الذين اعتلَوْا، في حُفَرِهِمْ قد هوَوْا، مالَهم-وقد طبَّقوا الأرضَ- انزَوَوْا؟، ما بالُهم في الثَّرى بعد النضرةِ قد ذَوَوْا،؟ لم يَلْوُوا حق الله وكم غريمٍ لَوَوْا،

(١) ملقى السبيل: ص ١١١-١١٣.
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص٣٧١ .
(٣) ملقى السبيل: ص.٢٥٢-٢٥٤.

انظر إلى دارهم خاليةً خاويةً إذ خَوَوْا...: (من السريع)

إنَّ السلاطينَ الذين اعتلَوْا في حُفَرٍ هاويةٍ قد هَوَوْا

نَادِهِمُ: ما لَهُمُ بعدما قد طبقوا الأرض مضوا وانزَوَوْا؟

ما بالُ أغصانهمُ ذبَّلٌ وما لَهُمْ تحت الثرى قد ثوَوْا؟

لم يُلْوَ حقُّ الله إذ جاءهمْ وكم غريم قبله قد لَوَوْا

انظرْ إلى دارهُمُ بعدهُمْ خاليةً خاويةً إذ خَوَوْا!(١).

فالواضح أن ابن أبي الخصال يسير على خطى المعري في المضمون، وقد يختلف معه أحيانا، فيبسط المعنى ويطيل فيه، لكن يبقى المعنى العام الذي يدور حول الحكمة والموعظة الحسنة والتذكير بالآخرة هو المسيطر على المضمون.

ج- نجد أن الشعر يوافق النثر في المضمون حتى يمكن القول: إن الكاتب يصوغ النثر شعرا دون تغيير في المضمون، بل إن كلمات النثر تكاد تكون غالبا هي كلمات الشعر، وواضح أن الكاتب يطوع الشعر ليوافق مضمون النثر، وهكذا حتى النهاية، فلم يضف الشعر جديدا إلى مضمون النثر غير أنه موزون مقفى.

ثانيا- ظواهر أسلوبية

عبر الكاتبان عن تجربتهما في قالب أدبي أخاذ، يكشف عن براعة أدبية واضحة، وقد استخدما المفردة التي تتناسب مع الوعظ والحكمة، وتدل على المعنى، وتبلغ المتلقي الفكرة في يسر وسهولة.

أ- السهولة والوضوح

تبدو هذه الظاهرة واضحة جلية في ملقى السبيل للمعري؛ إذ يعز علينا أن نجد ألفاظا حوشية، أو عبارات معقدة، أو أساليب ملتوية، كما هو معروف عن أسلوب أبي العلاء وفلسفته، وإنما جاء أسلوبه سهلا واضحا قياسا إلى أسلوبه في شعره ونثره الذي تسيطر عليه الغرابة ويعتريه الغموض أحيانا، وهذا إن دل فإنما يدل على رقة الألفاظ وسلامتها، ووضوح الأسلوب وسهولته،وبعده عن الإبهام والغموض،بالإضافة إلى أنه يراعي مقام الوعظ،وما يتطلبه ليصل إلى عامة الناس وخاصتهم.

وقد سار ابن أبي الخصال على نهج المعري في ملقى السبيل؛ فجاءت ألفاظه سهلة بسيطة، ومعانيه واضحة لا غموض ولا التواء، ولا تعقيد، وهو ما يتواءم مع مضمون النصين، وهو الدعوة إلى الله تعالى، والعمل للآخرة، والتحذير من الدنيا.

(١) رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٨٧ .

يقول المعري في حرف الحاء:"إن ابن آدم لشحيح، سوفَ يمرض من القوم صحيح، تعصِف بعقلهِ ريح، ثم يُحْفَر له ضريح، فإذا هو لقًى طريح، إن ذلك لهو التبْريح. شعر:(مخلع البسيط)

يـــا أيهـــا الممســـكُ الشـــحيحُ ســـيمرض الســـالمُ الصـــحيحُ
مالـــك لـــم تنتفـــع بعقـــلٍ هـــل عَصَـــفَتْ بـــالعقولِ ريـــحُ
إن شُـــيِّدَ القصـــرُ فـــي ســـرورٍ فبعـــده يُحْفَـــرُ الضَّـــرِيحُ
يَطَّـــرِحُ الهَـــمَّ بالمنايـــا مـــنْ جسـمُهُ فـي الثَّـرَى طـريحُ(١).

ويقول ابن أبي الخصال في حرف الحاء:" ياذا العجب الفادح، والهوى القادح، والحِرص الكادح، أَرَضِيتَ عن زور المادح، وغُرورِ الصادح؟!(من السريع)

مهـلا فلـو أحسَسْـتَ لـم تسـتطع تنفُّسًـا مـن عُجْبِـكَ الفـادحِ
إذا تزكيـتَ كمـا تـدَّعِي فـلا تُعـرِّجْ بهـوًى مـادحِ
قـد فـرغ الله ولا حجـةٌ لمُلحـفٍ فـي حِرصـهِ الكـادحِ
لـو نظـر المـرءُ إلـى عَيْبِـه لـم يَتَسَـوَّغْ كَـذِبَ المـادحِ
أو خَطَـرَ المـوتُ علـى بالـه لكـان فـي شُـغْلٍ عـن الصـادح(٢).

فالألفاظ سهلة والمعاني واضحة، كما أن المضمون عند الكاتبين يكاد يكون واحدا في المعنى العام، والسبب في رقة الألفاظ وسهولتها يرجع إلى طبيعة الموضوع، وهو الحكمة والموعظة الحسنة، والدعوة إلى الزهد في الدنيا، والتحذير منها، والتذكير بالآخرة، وذكر الموت، وهذا كله لا يستدعي ألفاظا معقدة أو أساليب ملتوية، والكاتب في مثل هذه الموضوعات لا يتكلف في أسلوبه، وإنما يعبر عما في نفسه في يسر وسهولة ترغيبا للسامعين وتأليفا لقلوبهم.

ب-التأثر بالقران الكريم اقتباسا وتضميناً

وهذا أمر طبعي؛ ذلك أن ملقى السبيل يدور حول الوعظ والزهد، والدعوة إلى الله-تعالى- وتحقير الدنيا، والتحذير منها، والإقبال على الآخرة. والكاتب في مثل هذه الموضوعات يهتدي بهدي القرآن الكريم، فيقتبس من ألفاظه، ويأخذ من معانيه وصوره، وهذا الاقتباس مما يؤكد المعنى ويقويه ويقربه، ويرسخ الفكرة ويثبتها في ذهن المتلقي.

ومن نماذج ذلك قول المعري في ملقى السبيل:"أما بصرُكَ فحديد, وأما ثوبكَ فهو الجديد, وظلُّك بقضاء الله مديد, وحولك العدد والعَدِيد, ولكنك سواك السديد, طَرقَكَ وعد ووعيد, فهل تبدئُ وهل تعيد,

(١) ملقى السبيل ص١٢٧-١٣٠.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال ص٣٧٣. قدح الشيء في صدره: أثر فيه.صدح: رفع صوته.الملحف: ألحف السائل: ألح، وفي التنزيل العزيز:(لا يسألون الناس إلحافا)من الآية(٢٧٣) سورة البقرة.

أم غيرك هو السعيد؟". شعر: (من الوافر)

أرى ملكًا تَحُفُّ به موالٍ له نظرٌ إلى الدنيا حديدُ
ضَفَا بُرْدُ الشبابِ عليه حتى مضتْ حِقَبٌ وملبسُه جديدُ
يزولُ الظلّ في قيظٍ ومشْتى ويسترُ شخصَه ظلٌّ مديدُ...
وكان السعدُ صاحبه زمانًا ولكنْ طالَ ما شقِيَ السعيدُ
بدا شخص المنونِ لناظرَيْهِ وقيل له: أَتُبْدِي أو تُعِيد؟(١).

فواضح أنه متأثر بقوله تعالى: { فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيد } ، وقوله تعالى: { إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيد } (٢)، وهو مما يؤكد المعنى ويقويه.

ويقول ابن أبي الخصال في حرف الشين: "والليل إذا يغشى، والصبح إذا فشا، والبرق إذا تمشى، إن العيون لتعشى، وإنا لنأمن ما نخشى...(من الطويل)

أما والنجومِ الزُّهْرِ والليلِ إذْ يغْشَى وغُرَّةُ فجْرٍ في مآخرِهِ تُغْشَى
وبَرْقٍ تمشّى في فروعِ غمامةٍ فأَذْهَبَ من أعطافها كلَّ ما مشَّى
لقد رانتِ الدنيا على كلِّ مُقلةٍ فحارتْ وهل يُهْدَى إلى قصدِه الأعشَى(٣).

فالكاتب هنا يقتبس الآية الأولى من سورة الليل، وينتزع معنى الفقرة الثانية من الآية الثانية من قوله تعالى: { وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى } ، وهذا مما يجلّي المعنى الذي يريده الكاتب.

وقوله على حرف الهاء: "وازنْ بين الهوى والنَّهى، واعلم أنّ إلى ربك المنتهى، والنارُ محفوفةٌ بالشهوات، فخذْ أو ذرْ مما يُشْتَهَى، أجرأُ من الليث من اجترأَ على الله فيما نهى...:(من المتقارب)

تقدَّمْ هوى أو تأخَّرْ نُهى فإنَّ إلى رَبِك المنْتَهى(٤).

فواضح أنه يقتبس من قول الله تعالى: { وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى } وهذا الاقتباس مما يقوى المعنى ويؤكده، ويضفي عليه الجلاء والوضوح(٥). وقد تبين لي أن التأثر بالقرآن الكريم اقتباسًا وتضمينًا وتلميحًا بدا واضحًا عند ابن أبي الخصال منه عند المعري.

---

(١) ملقى السبيل: ص ١٣٧-١٤٠. ضفا: طال واتسع.
(٢) من الآية (٢٢) من سورة ق، والثانية (١٣) من سورة البروج.
(٣) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال ص٣٧٧، ٣٧٨.
(٤) ينظر: السابق ص٣٨٧، ٣٨٨.
(٥) ينظر: السابق ص ٣٨٧، ٣٨٨، وينظر نماذج أخرى: ص٣٧٦، ٣٧٩، ٣٨٣، والآية الكريمة (٤٢) من سورة النجم.

ج- لزوم مالا يلزم

التزم أبو العلاء في ملقى السبيل في النثر والنظم أن يكون على حروف المعجم -كما ذكرت-، ثم اتفق له في بعض الفقرات المسجوعة،والأبيات المنظومة أن يلزم مالا يلزم، كما نرى مثلا في(الهمزة إلى الثاء)، لكنه في النظم في(الجيم) لم يركب من اللزوم، وكذا في(الحاء، والخاء)؛ ثم في (الدال) قَسَّمَ الفقرة النثرية وكذا الأبيات بين لزومين(مرة الدال مع الدال)، ومرة (العين مع العين) وهكذا.

وقد لزم ابن أبي الخصال مالا يلزم كما فعل المعري، وإن ترك ذلك أحيانا في بعض المقطوعات، فمثلا في(الهمزة) لم يجار أبا العلاء في اللزوم، فأتى ببيتين لزم فيهما(السين مع الهمزة)، ثم أتى الثالث دون لزوم، كما ترك ما لا يلزم في حروف(الذال،الشين،الصاد،الطاء،)(١). كما فعل المعري أيضا في حروف(الذال، الصاد، الطاء، الظاء، الغين، الهاء، اللام ألف)(٢).

ومن ذلك قول ابن أبي الخصال يلزم مالا يلزم:"طوبى لمن وفى الفرضَ،وأحسنَ القرضَ، وخافَ العرض، وتأمل السماء والأرض، وشدَّ الرَّحْلَ والغَرْضَ،وحاسب نفسه فلم يَرْضَ:(من السريع)

طـــوبى لعبـــدٍ أكمـــلَ الفرضَـــ ا وأحســـــنَ النيـــــةَ والقرضَـــــ ا

يعـــرضُ بلـــواه علـــى ربـــهِ ويحـــــذرُ الموقـــفَ والعَرْضَـــــا

مستصـــحبَ العَبْـــرَة مهمـــا رَنـــا إلـــى الســـماءِ ابتـــدرَ الأرضَـــا(٣).

ومن نماذجه التي أغفل فيها مالا يلزم قوله على حرف الصاد: "ذهبت الفُرص، وبقيتْ الغُصَص، وتُرِكَتِ العزائمُ والرُّخَصُ، فأين الملجأ والمخلص؟...(من مجزوء الكامل)

ذهبَـــــتْ بلـــــذَّتِها الفَـــــرَصْ وبقيـــــت تَشْـــــرَقُ بالغُصَـــــ صْ

وخرجـــت عـــن حـــد الـــديا نـــةِ فـــي العـــزائم والـــرخصْ

وظَلِلْـــتَ تطمـــع فـــي الخـــلا ص ولـــيس مثلَـــكَ مـــن خَلَـــصْ(٤).

ومن هذا يتبين لنا أن ابن أبي الخصال سار خلف المعري في لزومه ما لا يلزم، وترك ذلك أحيانا كما فعل المعري.

---

(١) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال: ص ٣٧٥ ،٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠ .

(٢) ينظر: ملقى السبيل ص ١٥٨ ،١٧٧ ،١٩١، ١٩٨، ٢٠٧، ٢٤٤، ٢٥٦.

(٣) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال ص٣٧٩.

(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٣٧٨، ٣٧٩.

ثالثا- الأوزان والقوافي

ذكرتُ أن الشعر جاء موافقا لمضمون النثر ،وربما جاءت بعض الألفاظ والعبارات مطابقة لبعضها في النثر والشعر ،وكان واضحا أن الكاتب يطوع الشعر -بل والقوافي -لمضمون النثر، ونستطيع أن نقول:إن أكثر الفقرات النثرية صِيغت شعرا دون تغيير يُذكر ،**وقد بدا لي ما يلي**:

أ- نظم المعري شعره في ملقى السبيل على أوزان بحور: السريع وهو أكثرها(أحد عشر حرفا)، يليه مخلع البسيط (سبعة)، ثم المتقارب (أربعة)، ثم مجزوء الرجز(حرفان)، وجاءت باقي الحروف على أوزان: مجزوء الكامل المرفل، مشطور الرجز، الوافر، المنسرح، الهزج، الخفيف، والبسيط، واحد لكل منهم، وبهذا يتبين أنه لم ينظم على الطويل، والكامل التام، والرمل.

ونظم ابن أبي الخصال شعره على بحور: السريع وهو أكثرها(أحد عشر حرفا) كما فعل المعري، ثم مجزوء الكامل الصحيح(ثلاثة)، والمنسرح(ثلاثة)، ثم الوافر، مخلع البسيط، المتقارب، والطويل،(حرفان)، ثم مشطور الرجز، مجزوء الرمل، والبسيط، حرف لكل بحر، وبهذا يتضح أنه لم ينظم على الكامل التام، والرمل التام، والخفيف، والهزج.

ب- من حيث الكم الشعري جاء نفس المعري طويلا عن ابن أبي الخصال، زاد عنه بثمانية أبيات، فقد بلغت أبياته الشعرية مائة وثمانية وخمسين بيتا، بينما جاءت أبيات ابن الخصال مائة وخمسين بيتا.

ج- لم يشترك ابن أبي الخصال مع المعري إلا في عشر مقطوعات جاءت على نفس الحروف والأوزان وهي: (الهمزة، الباء، الخاء، الفاء، اللام، الميم، النون، الواو، واللام ألف، والياء)، أما باقي الحروف فجاءت على أوزان أخرى خالف فيها المعري.

ولعل السبب في ذلك أن ابن أبي الخصال أراد أن يتميز عن المعري في معارضته، فأراد أن يثبت قدرته على مضارعته، فوافقه في بعض الأوزان والقوافي، وخالفه في بقيتها إثباتا لقدرته وتميزه.

بعد هذا كله نستطيع أن نقول: إن ابن أبي الخصال في معارضته لملقى السبيل سار خلف المعري في الشكل والمضمون، وحاول قدر اجتهاده أن يحذو حذوه، ليؤكد قدرته على معارضة أديب كبير له مكانته في المشرق والمغرب، كاشفا عن براعته الأدبية، مؤكدا على قدرة الأندلس على مجاراة المشرق، وهذه المعارضة لم تخف مقدرته الفنية وتميزه وأصالته، وقد أجاد فيها إجادة واضحة وأثبت براعة أدبية؛ مع هذا كله نرى شيئًا من المبالغة في قول الشيخ الشنقيطي: "ولعمري إن معارضة أبي عبد الله ابن أبي الخصال لملقى السبيل إن لم تفُقْه فليست بدونه"(١).

(١) ينظر: تعريف القدماء بأبي العلاء، ص ٤٥٥.

المبحث الثالث: معارضة بعض خطب ابن نباتة

يشير ابن الأبار في ترجمته لأيوب بن محمد بن وهب إلى أن لابن أبي الخصال خطبًا عارض بها ابن نباتة(١)، فيقول عن أيوب هذا: "ولقي أبا عبد الله ابن أبي الخصال فكتب عنه خطبه التي عارض بها ابن نباتة"(٢).

وفي رسائل ابن أبي الخصال عدد من الخطب التي عارض بها ابن نباتة في بعض خطبه، وهي: خطبته في الحض على الجهاد، وخطبة في الحض على قيام الليل، وخطبته في يوم النحر.

أولا - خطب ابن نباتة في الحض على الجهاد

لابن نباتة عدد من الخطب يحض فيها على الجهاد(٣)، وليست خطبة واحدة، وفيها يشكو من انشغال الناس بزينة الحياة الدنيا، ويأسى لجمود قلوبهم وقسوتها، بسبب سوء أعمالهم، وقبيح فعالهم، وعصيانهم، وابتعادهم عن منهج ربهم الذي فيه نجاتهم، منبها إلى سطوة العدو على بلاد المسلمين، ثم يدعوهم إلى التوبة والرجوع إلى ربهم والاستعداد للموت، والتزود من الدنيا للآخرة، مرغبا الناس في نصرة دين الله، متخذا من الترغيب والترهيب سبيلا لشخذ الهمم، وتحميسهم لإجابة داعي الجهاد، طمعًا في نيل الثواب العظيم، وجنة الله–تعالى- ورضوانه.

ثانيا- خطبة ابن أبي الخصال في الحض على الجهاد

لابن أبي الخصال خطبة طويلة في الحض على الجهاد(٤)، دعا فيها إلى الالتزام بأوامر الله تعالى، والتمسك بحبلهِ المتين، والرجوع إليه سبحانه، حاضًا على ترك المعاصي والذنوب، فالله لا يغير ما بهم من ذل وهوان حتى يغيروا ما بأنفسهم من الركون إلى المعاصي واتباع الشهوات، فكثرة الذنوب جلبت القحط والخوف والهزائم، وفي النهاية ينادي بعدم الاستكانة والركون إلى الدعة والراحة، داعيا إلى مباغتة الأعداء، ملهبا العزائم، مستحثا الهمم للتسابق إلى ميدان الجهاد.

---

(١) عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقي، كان فصيحا مفوها، بديع المعاني، جزل العبارة، مقدما في العلوم والآداب، خطيب حلب، التقى مع المتنبي في خدمة سيف الدولة فكان خطيبه المميز، وأكثر من خطب الجهاد والحض عليه بسبب كثرة غزوات سيف الدولة توفي ٣٧٤هـ. ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس١٥٦/٣، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٥م، مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي، تحقيق: خليل منصور٣٠٢/٢، ٣٠٣، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان١٤١٧هـ-١٩٩٧م. وهو ليس ابن نباتة السعدي (ت٤٠٥هـ) كما زعم بعض الدارسين, ينظر الحوار الأدبي بين المشرق والمغرب:د. أيمن ميدان ص ١٧١. ورسائل ابن أبي الخصال ص١٥.

(٢) التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار القضاعي، تحقيق د. بشار عواد معروف، ٣٢٩/١ ترجمة رقم(٥٣٢)، دار الغرب الإسلامي، تونس، الأولى ٢٠١١م. وقد أشار إلى ذلك أيضا د.إحسان عباس. ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص٢٨٦، دار الثقافة، بيروت، السادسة ١٩٨١م.

(٣) ينظر ديوان خطب ابن نباتة: شرح الشيخ طاهر أفندي الجزائري، مطبعة جريدة، بيروت١٣١١هـ ص١٧٧-٢٤٠، وهي ثماني عشر خطبة.

(٤) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥٢٢-٥٢٩.

ثالثا- البناء النفسي والفكري

أول ما نلاحظه أن لابن نباتة عددا من الخطب التي يحض فيها على الجهاد، تدور حول التحذير من الدنيا، والتسابق إلى ميدان الجهاد، أما ابن أبي الخصال فله خطبة واحدة طويلة بالقياس إلى خطب ابن نباتة. ونحاول الآن الوقوف على العوامل النفسية والفكرية لهذه الخطب.

١- من حيث الاستهلال:

أ- المعهود أن مفتتح الخطبة هو اللبنة الأولى التي تبنى عليها، ولذا يلزم أن تكون من احتفال الكاتب بالقدر الذي يتناسب ودورها في تحريك خاطر المتلقي. فمتى كان الابتداء حسنًا شدّ انتباه المتلقي، وكان أدعى إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام.

ب- وقد اتخذت الخطبة شكلها الفني المعروف من حيث الاستهلال بالحمد، والثناء على الله تعالى، ثم الشهادة، والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- والملاحظ أن ابن أبي الخصال أطال في تحميده إطالة واضحة، قياسا إلى ابن نباتة الذي لم يقف طويلا أمام المقدمات حيث جاءت المقدمة قصيرة مناسبة لخطبه التي لا تتسم بالطول قياسا إلى خطبة ابن أبي الخصال.

ج- جاءت مقدمة الخطبة مرتبطة غالبا بمضمونها، فابن نباتة يقول في خطبته الثالثة: "الحمد لله مؤيد الصابرين بعزيز نصرهِ، وميسر الشاكرين لحميدِ شكره، وموفق المختارين للقيام بأمره، وقاصم الجبارين بوبيل مكره"(١).

كما نجد في مقدمة خطبة ابن أبي الخصال إشارات تتصل بالجهاد، ومن ذلك قوله بعد التحميد: "وأشهد أن محمدا نبيه ورسوله الصادع بأمره ونهيه، الناهض بأعباء رسالته ووحيه، الرادع لأهل الزيغ والجهالة، الجادع لأنفِ الكفر والضلالة، اعتمد عروشهم فتلها وثلها، وقصد جموعهم ففضها وفلها، وأعطى المشرفية حقها"(٢).

٢- من ناحية المضمون:

أ- جاءت خطب ابن نباتة خالصة للجهاد، وإن دعا فيها إلى الزهد في الدنيا والاستعداد للآخرة، يقول لافتًا أنظار المجاهدين إلى زادهم وعدتهم إلى الجهاد، مازجًا بين الوعظ والدعوة إلى جهاد النفس والأهواء: "واعلموا أنه لا يصلح الجهاد بغير اجتهاد، كما لا يصلح السفر بغير زاد، فقدموا مجاهدَة القلوب قبل مشاهدةِ الحروب، ومغالبةَ الأهواء، قبل محاربةِ الأعداء، وبادروا بإصلاح السرائر فإنها من أنفس العدد والذخائر"(٣).

---

(١) ينظر: ديوان خطب ابن نباتة: ص ١٨٥ وينظر ص ١٨٢، ١٩٥.

(٢) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال ص٥٢٣.

(٣) ينظر: ديوان خطب ابن نباتة ص١٨٣، ١٨٤ .

ويقول مرغبًا في الجهاد مشددًا على وحدة الصف: "ألا وإن الجهاد كنز وفَّر الله منه أقسامكم، وحرز طهَّر الله به أجسامكم، وعز أظهر الله به إسلامكم، فإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، فانفروا -رحمكم الله- جميعا وثُبَات، وشُنُّوا على أعدائكم الغارات، وتمسكوا بعصَم الإقدام، ومعاقل الثبات، وأخلصوا في جهاد عدوكم حقائق النيات، فإنه والله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، ولا قعدوا عن صون ديارهم إلا اضمحلوا"(١).

وينسج ابن نباتة باقي خطبه على هذا المنوال، وتعلو نبرته الحماسية، فيلهب العزائم، ويستحث الهمم للتسابق إلى ميدان الجهاد، موقظا حمية الإيمان في النفوس، محذرا من التقاعس والركون إلى الدنيا، مشددا على الإقدام والثبات، منفرا من الفرار والإدبار، مخوفا من عذاب الله- تعالى(٢)، وهو يلح على التمسك بحبل الجهاد، والصبر والمصابرة والمرابطة في سبيل الله (٣)، مبشرا بنصره لعباده المؤمنين، رابطا الجهاد في سبيل الله بالفوز بالجنة(٤).

ب- أما ابن أبي الخصال فيغلب على خطبته الجانب الدعوي، فهو يدعو إلى الله - تعالى- مرغبا في الزهد في الدنيا، محذرا من التهافت على متاعها، مذكرا بالموت، وأخذ العبرة من الأمم السابقة، والعمل ليوم الحساب، يقول: "وسلوا منازلكم عن عُمَّارها، ومَنازِهَكم عن زُوَّارها، ومياهكم عن فُرَّاطِها وَوُرَّادِها... سلوا نَشَبَكُم المُقْتَنَى، ونسبكم الأقصى والأدنى: هل تجدون إلا أسماء وكنى... تالله لو كففتم عن الهوى فضولَ القولِ والنظرِ، وصرفتم إلى غيث التقوى رائدَ السمع والبصر، لما صدرت نظرة إلا عن إفادة عِبرة، ولا خطرت فكرة إلا في زيادة علم بالدنيا وخبرة، كلا! لا عَتْبَ لكم عليها! قد أَمَّتكُم جهارا بأحجارها، ولدغتكم مرارا من أَجْحَارها، وعمتكم صغارا بذحولها وأوتارها، وأنتم -على ذلك- تتهافتون تهافت الفَراش على حطامها ونارها... فانفضوا -رحمكم الله - أيْدِيَكم بها نفضا، وأَجْمِعوا لها- كما رفضتكم- رفضًا، واستبدلوا من نصب غرورها بالزهد فيها دعة وخفضا"(٥).

ويسير الكاتب على هذا النهج طوال خطبته محذرا من التهافت على متاع الدنيا الزائل مذكرا بالآخرة، وفي نهاية الخطبة يذكر الجهاد ويحض عليه، مرغبا في ثوابه العظيم، يقول: "ألا تستوحشُونَ لتباريحِ العصر، وركودِ ريح النصر، وتداعي أمم الكفر، وإجفالنا عن مقاومتهم إجفال العُفْر، ألا نقلع عن الذنوب التي فَتَّتْ في أعضادِنا، وقضت باهتضامنا واضطهادنا؟، أقسم بالله ما انقلب حالُ الدهر، ولا سُلِبنا عادةَ الظهور والقهر، ولا نكل الأبطال، ولا أخلفنا الغيثُ الهطَّال، ولا

(١) ينظر: ديوان خطب ابن نباتة ص ١٨٣.
(٢) ينظر: السابق ص ١٨٩، ١٩٠.
(٣) ينظر: السابق ص ٢٠٣.
(٤) ينظر: نفسه، ص ٢٠٨ .
(٥) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥٢٥- ٥٢٧.

رُفِعت علينا من الرعب جبال لا تُظْهَرُ ولا تُطَال، ولا غيَّرَ الله نِعَمَنَا، ولا خَذَلَنا ولا أسلمَنا، إلا لما عَهِدَ إلينا وأعلمَنا، إذ يقول الله سبحانه: { إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ } و { إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } فاستقيلوا -رحمكم الله- عِثَاركم، واستقبلوا عدُوَّكم وخذُوا ثَارَكُم، وخلِّدوا في صحف القبول آثاركم، وأخلصوا لله طاعتكم، وحققوا إنابتكم وضراعتكم"(١).

ولعل ابن أبي الخصال وظف في خطبته الموعظة الحسنة والدعوة إلى الله تعالى، والتذكير بالآخرة، والزهد في الدنيا لخدمة الحض على الجهاد؛ ومقاومة الجبن والخور الذي حل بالناس، ورجوعهم عن قتال الأعداء المحيطين بهم، ومعالجة ما حلَّ ببعض الأندلسيين من انحلال خلقي وديني وميل للدعة،عطلَّهم عن الجهاد(٢).

ج- تغلب على خطب ابن نباتة الحماسة الواضحة، فهو يلهب الصدور، ويحمس الناس ويحفزهم على الجهاد، والإقدام على الأعداء، فالآجال محدودة، والأنفاس معدودة، ومن النماذج التي تؤكد ذلك قوله يلهب العزائم، ويستحث الهمم للتسابق إلى ميدان الجهاد:"أيها الناس، شمِّروا للجهاد عن ساق العزم الجليّ، وأقدموا على عدوكم إقدام الأَتِيّ، فإنه والله لا قرَّب أجلَ أحدكم الإقدام، ولا زاد في عمره الإحجام، وإنما هي آجال محدودة، وأنفاس معدودة، فأنفقوها في ابتغاء الخلفِ، ولا تمحقوها في سبيل التلفِ، ولا تكونوا من الذين اتخذوا الدنيا معقِلا، ورضوا بالعجز والتخلف موئلا، فأسلمتهم الدنيا إلى الخذلان، وقادهم العجز الى الهوان"(٣).

والسبب في هذه الحماسة المسيطرة على خطبه- فيما أرى- أنه صحب سيف الدولة الحمداني، وكان كثير الغزوات، ولهذا كثرت خطبه في الجهاد، فكان يخطب محرضا الجيوش على الجهاد، ويحثهم على نصرة دين الله، والجهاد في سبيله(٤). .

أما ابن أبي الخصال فجاءت خطبته خالية من الانفعال والحماس الذي يسيطر على مثل هذه الخطب، ولعل السبب في ذلك أنها لم تكن خالصة للحض على الجهاد، إذ غلب عليها التحذير من الدنيا، والدعوة إلى الزهد في متاعها، وأخذ العبرة والعظة من القرون السالفة، وهذا ما تنطق به خطبته الطويلة التي لم يفرد للحض على الجهاد فيها إلا قليلا في نهايتها(٥). وهذا يدفعنا إلى القول إنه وضعها للمعارضة بغرض التوجيه والتعليم، فقد كانت خطبه تتناقل بين الناس، ويتناولها بعض

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص٥٢٨. العفر جمع الأعفر: الظبي يعلو بياضه حُمرة. والآيتان: الأولى في سورة الرعد من الآية (١١)، والثانية من سورة يونس: الآية(٤٤).

(٢) ينظر: مواقف الكُتاب من مظاهر الانحراف السياسي والاجتماعي في الأندلس زمن ملوك الطوائف: سالم مرعي الهدروسي، مجلة أبحاث اليرموك، الأردن، المجلد(١٣)، العدد الأول، ١٩٩٥م، ص٢٨٥ .

(٣) ينظر: ديوان خطب ابن نباتة ص١٨٥. الأتِيّ: السيل.

(٤) ينظر: وفيات الأعيان ٣/ ١٥٦.

(٥) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال ص ٥٢٨ .

الخطباء بالتعلم والتوجيه، كما يفهم من سياق خطبه وتوجيهاته المصاحبة لها(١). ولعلها كانت خطبة من خطب يوم الجمعة.

د- يلتقي الكاتبان في مواكبة الأحداث الجارية؛ فابن نباتة في خطبه "يتابع ما يجري في بلد الإسلام عن كثْب، ثم لا يلبث أن يودع ذلك في خطبه فعندما نما إلى علمه أن أناسًا فروا من الزحف خصهم بخطبة من خطبه(٢)... ولما وقع الناس في خوف شديد نتيجة استيلاء العدو على حلب أنشأ في ذلك خطبتين، يسكن فيهما الاضطراب الذي حل بالناس، ويحاول تهدئة الروع الذي نزل بهم(٣)، ولما قُتل الدمستق في وطنه من قبل أنصارهِ .. وثق ابن نباتة ذلك مضمنا خطبته الأخيرة ... حديثا عن هلاكه"(٤).

وابن أبي الخصال يسجل خطبته في عصر كان يموج بالاضطرابات والتقلبات؛ فقد أخذت يد العدو الغاشم تنوش بلاد الأندلس وحصونها من كل جانب، حتى استولت على الطارف والتليد، فأهلكوا الحرث والنسل، وعاثوا في الأرض فسادا، وأشاعوا القتل والذبح في المسلمين، وأُصيب صرح الأندلس الشامخ، وقُوضت المساجد والمعالم الإسلامية، ونُسخ نداء الحق بناقوس الصليب، وعاد الإسلام غريبا في هذه البقعة النائية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!. وقد ألمح المقّري إلى ذلك حين قال: "ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى- دمرهم الله تعالى- على كثير منها- يعني مدن الأندلس- يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثأر، بالنظم والنثار، فلم ينفعهم ذلك حتى اتسع الخرق، وأَعْضَل الداءُ أهل الغرب والشرق"(٥).

٣- الختـــام : يجب على الكاتب أن يجعل ختامه حسنا بليغا، ومن حذقه وبراعته أن يكون مؤذنا في الخاتمة بانتهاء الكلام، لأن الخاتمة هي "آخر ما يبقى في الأسماع، ولأنّها ربما حُفِظَت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فيجب أن يجتهد في رشاقتها، ونضجها، وحلاوتها، وجزالتها"(٦).

---

(١) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال (مقدمة المحقق) ص ١٥.

(٢) هي الخطبة الثالثة، ينظر: ديوان خطب ابن نباتة ص١٨٥.

(٣) ينظر: ديوان خطب ابن نباتة ص ١٩١، ١٩٥.

(٤) خطب ابن نباتة، الرؤية والفن: خالد بن محمد الجديع، مجلة عالم الكتب، مجلد (٢٧)، عدد (٥ ،٦) ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م. ص ٤٦٥، ٤٦٦.

(٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:الشيخ أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس ٤٧٩/٤، دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م. سجل الشعراء والكتاب هذه الحوادث شعرا ونثرا، ينظر -على سبيل المثال- قصيدة ابن الأبار ونونية الرندي وغيرهما في الاستغاثة ورثاء هذه المدن: نفح الطيب ٤/ ٤٥٧، ٤٧٩- ٤٨٨، ورسالتي ابن عميرة وابن الأبار في سقوط بلنسية اللتين تترجمان هذا الواقع الأليم الذي كان يعيشه أهل الأندلس في ظل هجمات النصارى واستيلائهم على مدن الأندلس في السابق: ٤٩٠/٤- ٤٩٩.

(٦) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق:د. حفني محمد شرف ٦١٦/٤، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م. وينظر: إحكام صنعة الكلام: ص٢٤٣ .

أ- يختم ابن نباتة خطبه في الغالب بالدعاء للمؤمنين، شافعا الدعاء بآية من كتاب الله تعالى تتصل بموضوع الخطبة، يقول:"جعلنا الله وإياكم ممن غلب هواه، وسارع في مرضاة مولاه، وكانت الجنة مُنْقَلَبَه ومثواه، إن أحسن القصص والكلام، وأبلغ النثر والنظام كلام ذي الجلال والإكرام، وتقرأ: "يأيها الذين امنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا(١). وعلى هذا الدرب يسير في ختام خطبه الجهادية(٢).

ب- وجاء ختام ابن أبي الخصال في خطبته قريبا من ختام ابن نباتة، إذ ختمها بالحث على الدعاء، والتمسك بكتاب الله تعالى، والحض على تلاوته، يقول: "إن أبلغ الموعظة في القلوب، وأولاها بدرك المطلوب، كلامُ علاَّم الغيوب، فإذا قرئ القرآن فاستمعوا بيانه، واتبعوا قرآنه، وتتعوذ وتقرأ: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ } ، { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } (٣).

رابعا- خطب أخرى

لابن أبي الخصال ثلاث خطب أخرى عارض ابن نباتة باثنتين منها، وهما خطبة في الحض على قيام الليل، وخطبة يوم النحر(٤). أما خطبته الثالثة فهي خطبة طويلة في الشكر على نزول الغيث بعد القحط(٥)، ولا علاقة لها بخطب ابن نباتة، وإن كان له خطبة جاءت في احتباس المطر، فخطبة ابن أبي الخصال في وصف الغيث بعد القحط، وهي أقرب إلى الرسالة الأدبية من الخطبة، جاءت على غرار ما عرف في النثر الأندلسي (بالمطريات)، وهي رسائل جاءت في وصف الغيث بعد القحط ووصف آثاره(٦). أما خطبة ابن نباتة فهي تعليمية توجيهية، استهلها بما تستهل بها الخطب بالتحميد والصلاة على النبي-صلى الله عليه وسلم، ثم يبين أن سبب القحط الذي أصاب الناس هو ذنوبهم، واتباع أهوائهم، وفي نهاية الخطبة يأمرهم بتقوى الله واتباع سنن السلف الصالح(٧).

١- خطبة في الحض على قيام الليل

في ديوان خطب ابن نباتة:(خطبة يذكر فيها ذم الدنيا، ويحض على قيام الليل)(٨)، ولابن أبي الخصال:(خطبة فيها الحض على قيام الليل) تتسم بطولها المفرط كعادته في باقي خطبه(٩).

---

(١) ديوان خطب ابن نباتة ص ١٨٤.

(٢) ينظر -على سبيل المثال- ديوان خطب ابن نباتة ص١٨٥، ١٨٧ ،١٩٠، ١٩٨ ،٢٠٢. وغيرها.

(٣) رسائل ابن أبي الخصال ص ٥٢٩.

(٤) ينظر: خطب ابن نباتة ص ٤٠٩-٤١٨ .

(٥) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال ص ٢٧٢-٢٨١.

(٦) استهلها الكاتب أبو القاسم ابن الجد، وتبعه أبو عمر الباجي، ثم عارضهما أبو محمد بن عبد الغفور. ينظر: الذخيرة ١/٢/ ٢٨٩، ١٩٦، ٣٤٤ .

(٧) ديوان خطب ابن نباتة: ص ٢٥٦-٢٥٨ .

(٨) ينظر: السابق ص ٥٥- ٥٨.

(٩) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال ص٥٣٤، ٥٣٥.

أ- من حيث الاستهلال: استهل الكاتبان بالحمد، والثناء على الله تعالى، ثم الشهادة، والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-وقد أطال ابن أبي الخصال في تحميده إطالة واضحة، قياسا إلى ابن نباتة.

ب- من ناحية المضمون: تدور خطبة ابن نباتة حول التحذير من الدنيا وشهواتها، والوقوع في أسرها، والدعوة إلى العمل للآخرة، والحض على قيام الليل، يقول: "إن الدنيا قد أدبرت وآذنت بانقلاع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطّلاع، فتزودوا من دار المَحال لدار المآل، واعلموا أن الدنيا مفازة فيها الطريق إلى الآخرة... فأنيروا مسالكها بصيام هواجِرها، واقطعوا مهالكها بقيام دياجرها، فإنه من اتخذ الليل جملا قطَع عليه مفاوز الهَلكَات"(١) ثم يسلك طريق الوعظ حتى نهاية الخطبة.

ويحذو ابن أبي الخصال في خطبته حذو ابن نباتة سالكا سبيل الوعظ، مذكرا الناس بالتقوى والعمل الصالح والتزود للآخرة، يقول:"ألا تعتبرون ما بقي من الدنيا بما مضى؟ أمَّا ديْن الحياة فمُقتضى، وأما سيف الصراط فمنتضى، وستُفضون إلى ما قدمتم مع من أفضى، وها أنتم تُقرِضون السخط وتأملون الرضى، ولو عُومِلَ أحدُكم بهذا ما تجاوز ولا أغضى، ألا نادم على ما سلف من ذنوبه وفَرَّط؟، ألا خائف من طول ما جمح وأَفْرَط، ألا مُستنقضٌ لنفس أوبقها وأشرط، ألا مناجيَ لمولاه، ألا هاجرٌ لكراه؟ ألا حامد عند الصباح لسراه؟ ألا مبدد لعبراته؟ ألا مردد لحسراته؟"، ويسير على هذه الطريق حاضًا على قيام الليل، والتوبة والإنابة إلى الله، والعمل للآخرة، عسى الله أن يكفر السيئات، ويعفو عن الزلات(٢). فالواضح أن الخطبتين تتفقان في المضمون، وهو الوعظ والتحذير من الدنيا والعمل للآخرة والحض على قيام الليل .

ج- أما عن الخاتمة فجاءت متشابهة، في الحديث عن بلاغة القرآن الكريم، والحض على تلاوته والإنصات له وقراءته، يقول ابن نباتة: "إن أشرح المقال الأبي، وأفصح اللسان العربي، وأوضح البرهان الجلي، كلام المقتدر العلي، ويقرأ: **{ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّل }** ثلاث آيات"(٣).

ويقول ابن الخصال: إن أبلغ الموعظة وأنفع الذكرى... كلام من أرسل رسله تَتْرى... فإذا قرئ فأحسنوا الاستماع .. وتقرأ: **{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا }** إلى قوله تعالى: **{ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِين }** (٤).

(١) ديوان خطب ابن نباتة: ٥٥، ٥٦.
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٥٣٨- ٥٤٠.
(٣) ديوان خطب ابن نباتة: ص ٥٧، ٥٨ .
(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥٤٠.

٢- خطبة يوم النحر

أ- لابن نباتة خطبة[١] في يوم النحر استهلها بالتكبير، والحض على الإكثار من ذكر الله تعالى وتسبيحه، مبينا فضل يوم النحر، وحرمته لكونه في شهر حرام، داعيا الناس إلى التوبة، مذكرا بنعم الله تعالى على عباده، متحدثا عن شرائع الإسلام من الفرائض والسنن، ثم يعمد إلى الحديث عن الأضحية وإراقة الدماء وفضلها العظيم، حاضا على التصدق، مشيرا إلى سيدنا إبراهيم وذبحه لولده إسماعيل-عليهما السلام- ثم يختم خطبته بآيات الحج التي وردت في سورة الحج[٢].

ب- أما ابن أبي الخصال فقد استهل خطبته بما تستهل به الخطب من التحميد وأطال فيه كعادته[٣]، ثم نعى إعراض الناس عن الاحتفال بهذا اليوم العظيم وعنايتهم بأعياد الروم وفارس[٤]، ثم عرج على ذكر فضل الأشهر الحرم[٥]، ثم الحديث عن فضل يوم عرفة[٦]، ثم يتعرض للحديث عن النحر وفضل إهراق الدم في هذا اليوم الأغر[٧]، سالكا في هذا كله سبيل الوعظ، متحدثا عن العقائد، والعبادات، والمعاملات، والتقوى، والدعوة إلى التوبة، ثم يشرع في ذكر الأحاديث النبوية المتتابعة واعظا ومحذرا حتى نهاية الخطبة[٨]، وأخيرا ينهي خطبته الطويلة بالالتزام بكتاب الله، والحض على تلاوته وتدبره، مستشهدا في هذا كله بآي الذكر الحكيم التي تقوي ما يذهب إليه، وأحاديث النبي الكريم-صلى الله عليه وسلم- التي أكثر منها في خطبته بصورة لافتة.

ج- اتفقت الخطبتان في المقدمة التي بدأت بالتكبير والتحميد، والشهادة، والصلاة علي النبي الكريم-صلى الله عليه وسلم- والحديث عن قدرة الله تعالى ونعمه على عبادة، والحض على الذكر، وجاءت مقدمة ابن نباتة قصيرة مختصرة كعادته ثم دخل في مضمون خطبته مباشرة[٩]، بينما طالت عند ابن أبي الخصال إطالة واضحة متحدثا عن قدرة الله تعالى وعظمته، وفضله على خلقه، مثنيا على النبي-صلي الله عليه وسلم- وصحابته الكرام ثناء حسنا[١٠]. وجاءت المقدمة مرتبطة ارتباطا وثيقا بمضمون الخطبة.

د- كما اتفقت الخطبتان في الخاتمة، حيث ختمتا بالثناء على كتاب الله تعالى، ثم ذكر آيات من الذكر الحكيم تتصل بمضمون الخطبة. وتبدو خطبة ابن أبي الخصال في عيد الأضحى طويلة بصورة واضحة قياسا لخطبة ابن نباتة.

---

(١) ينظر: ديوان خطب ابن نباتة ص ٤٠٩-٤١٨ .
(٢) من قوله تعالى:(وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت)إلى قوله تعالى: (ثم محلها إلى البيت العتيق) الآيات (٢٦) إلى (٣٣) من سورة الحج.
(٣) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال ص٥٦٤- ٥٦٦.
(٤) ينظر: السابق ص ٥٦٦، ٥٦٧.
(٥) ينظر: السابق ص ٥٦٧- ٥٦٩.
(٦) ينظر: السابق ص ٥٧ – ٥٧٢.
(٧) ينظر: السابق ص ٥٧٣ .
(٨) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال ص٥٦٣ إلى نهاية الخطبة ص ٥٨٩.
(٩) ينظر ابن نباتة ص ٤٠٩.
(١٠) رسائل ابن أبي الخصال ص٥٦٤- ٥٦٥، ٥٦٦.

وفي تقديري أنه لا علاقة بين خطبة ابن الخصال وخطبة ابن نباتة في عيد النحر غير أنها وضعت للتعليم، وتشابهت في العنوان، فجلها أحاديث نبوية جامعة لخصال الخير، تحض على العمل الصالح، وتدعو المسلم إلى التحلي بمكارم الأخلاق، استشهد بها ابن أبي الخصال، تزيد عن مائة حديث(١). وقد بدا منها ثقافته الدينية الواضحة.

خامسا- رؤية فنية

دارس هذى الخطب يمكنه الالتفات إلى بعض الظواهر والسمات التي تتسم بها، وهي سمات ميزتها من غيرها، وذلك راجع لطبيعة الموضوع الذي تعالجه، والفكرة التي تسعى لإبرازها، والتجربة الشعورية التي تستوعبها؛ والسطور التالية توضح ذلك.

١- بروز الاتجاه الوعظي: ويظهر ذلك جليا في ذم الدنيا والتحذير منها، وعدم التعلق بها، والتأكيد على زوالها، والزهد فيها، والاستعداد للموت، والتفكير في هذا المصير المحتوم، والدعوة إلى العمل الصالح والتزود من التقوى، والعمل للآخرة. ومن ذلك قول ابن نباتة: "فقَصِّروا عباد الله من الدنيا آمالكم، واستصغروا في جَنْب ما أعد الله لكم أحوالكم، وأنفقوا في سبيله أنفسكم وأموالكم، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم"(٢).

وقول ابن أبي الخصال عن الأشهر الحرم: "أعرضنا عنها وهي عُرْضَةُ الإقبال، ولم تحْظَ منا بذكر ولا جرت في بال... فيا خيبة من زاره الأجر فردَّه، ويا وحشة من وافده الفجر فصدَّه... فالسعيد -رحمكم الله- من استودَعَها برًا، واستحفظها من العمل الصالح خبِيَّةً زاكيةً وسرًا، وعاملَ الله-تعالى- بإكرام زائره، وإعظام شعائره، وبسط لوافدها رداءَ الصِّيانة، وشدَّ على حظّهِ منها يد الضَّنانة، ووفى الله تعالى بما حَمَّله فيها من الأمانة"(٣).

إن الاتجاه الوعظي غلب على هذه الخطب، وهذا أمر طبعي، ذلك أن الخطيب في خطبته أيا كان موضوعها لا بد أن يُغْني خطبته بالوعظ والدعوة إلى الله-تعالى-والتحذير من الدنيا والحض على العمل الصالح، والتزود من الدنيا للآخرة،وهذا واضح بين في خطب ابن نباتة وابن أبي الخصال.

٢- السهولة والوضوح: تلتقي هذه الخطب في سهولة الألفاظ ووضوح المعاني والأفكار، فمعانيها في جملتها قريبة الفهم، سهلة المأخذ، وقد سلك الكاتبان في التعبير عن معانيهما الأسلوب الخطابي الذي لا يستهدف عقل المخاطب فحسب، وإنما يثير عاطفته الدينية، ويحرك مشاعره، من خلال رسم الصور المنوعة، وعرض المعنى الواحد بأثواب مختلفة، والأساليب الإنشائية التي تثير انتباه المتلقي، مع الاستعانة بالتكرار، والترادف اللذين يساعدان على بسط المعنى، وتوضيحه،

(١) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال: من ص ٥٧٣ إلى ٥٨٨ .
(٢) ديوان خطب ابن نباتة: ص ١٨٧.
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ص٥٦٦، ٥٦٩- ٥٧٠.

وتثبيت الفكرة في ذهن المتلقين، وهو ما يتسق مع الوعظ والدعوة إلى الله، ويتواءم مع مضمون هذه الخطب.

يقول ابن نباتة: "وأنتم اليوم عباد الله، نصب أمر الله ونهيه، وحُمَّال دينه ووحيه، أمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم حولكم، وعهداؤه على الوفاء بميثاقكم، لله فيكم عهد قدَّمه إليكم، ومعذرة استخلفها عليكم، ورسالة أشاد بها فيكم، كتاب الله بينةٌ بصائره، وآيٌ منكشفةٌ سرائره، وبرهان منجليةٌ ظواهره، مديم للبرية إسماعه، قائد إلى الرضوان أتباعه، مؤد إلى النجاة أشياعه، فيه بيان حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومواعظه المكررة"(١).

ويقول ابن أبي الخصال: "الله اكبر الله اكبر الله اكبر، هذا -رحمكم الله-يومُ الموسم الأشهر، والحج الأكبر، والحظُّ الأوفر، ومعدن الحسنات، وكنز الخيرات، وينبوع البركات، شهر حل من الثلاثة الحرم المتواليات، محل الواسطة من الخرزات، واختص بالأيام المعلومات والمعدودات،ختم الله به الحول، وأتم عليكم فيه النعمة والطول"(٢).

فالأسلوب سهل يسير، بعيد عن الغموض، يتوافق مع الوعظ والدعوة إلى الله–تعالى-، والكاتب يعبر عما في نفسه في يسر وسهولة ترغيبا للسامعين وتأليفا لقلوبهم. والسبب في ذلك يعود إلى أن هذه الخطب وضعت للتعليم، فالغرض منها التوجيه والاحتذاء، إلى جانب الاتجاه الوعظي المباشر البيّن فيها، وهو وعظ بتسم بقوة العبارة وجزالتها وسهولتها، ذلك أنها تلقى على الناس عامة، فجاءت سهلة قريبة من الأفهام، بعيده عن الغموض والإبهام.

٣- الأخذ من القرآن الكريم: يبدو واضحا حرص الكاتبين على الأخذ من آي الذكر الحكيم، استجابة للحس الديني عندهما، فالكاتب"أحوج الناسِ إلى الاستشهاد بكلام الله– تعالى- في أثناءِ محاوراته، وفصولِ مكاتباتهِ، والتَّمثُّلِ بنواهِيهِ وأوامرهِ، والذكر لقوارعهِ وزواجرِهِ، فهو حِلْيةُ الرسائلِ، وزينةُ الإنشاءاتِ، وهو الذي يَشُدُّ قُوَى الكلامِ، ويُثَبّتُ صحتَهُ في الأَفهَامِ، فمتى خلتْ منه كانت عاطِلةً من المحاسنِ، عاريةً من الفضائلِ؛ لأنّه الحُجَّةُ التي لا تُدْحضُ، والحقيقةُ التي لا تُرْفَضُ"(٣).

وهذا واضح بين في هذه الخطب، إذ يلتقي الكاتبان في التأثر بالقرآن الكريم على سبيل الاستشهاد، أو التضمين، أو الحل، أو التلميح، وهذا أمر طبعي في مثل هذه الخطب.

يقول ابن نباتة: "فعظموا شعائر الله، ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق، وتصدقوا فإن الله يجزى المتصدقين، ولا يضيع أجر المحسنين،وأقرضوا الله قرضًا حسنًا،وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا

(١) ديوان خطب ابن نباتة: ص ٤١٣ .
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: من ص ٥٧٠ .
(٣) القانون في ديوان الرسائل: ص٨ .

واستغفروا الله إن الله غفور رحيم،واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون"(١).

ويقول ابن أبي الخصال:"لا حجة بعد الرسل، ولا حيرة مع وضوح السبل، أمثال مضروبة، وأعلام منصوبة... ونار موقدة، على الأفئدة تطلع، وجنات مونقة، دِيَم نعيمها لا تقلع، وسيئة بحالها، وحسنة بعشر أمثالها، وحرام وراءه عذاب، وحلال إزاءه ثواب، فالحازم -رحمكم الله- كلُّ الحازم، من استبرأ لدينه وترك الشك ليقينه، وتأهب ليومه وحينه، قبل غصص الحلقوم وشَرَقِه، وشخوص البصر وبَرَقه"(٢).

فالواضح أن الكاتب يهتدي بهدي القران الكريم، فيقتبس من ألفاظه، ويأخذ من معانيه وصوره، ما يعضد به موعظته، ويرغب به الناس في العمل الصالح، ويؤكد المعنى ويقويه ويقربه، ويرسخ الفكرة ويثبتها في ذهن المتلقي. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي يستشهد بها الكاتب، ويقتبس بعضها والنماذج كثيرة تؤكد على ذلك(٣).

٤- **الغـرض التعليمـي**: تتفق هذه الخطب في الغرض التعليمي أو التوجيهي، فالغرض منها -كما ذكرت- التوجيه والاحتذاء، إذ وضعت ليتناقلها الخطباء، يؤكد ذلك قول الكاتبين في نهاية الخطبة:(وتقرأ) وهو خطاب للقراء من الكتاب والخطباء، ثم يأتي الكاتب ببعض آية أو آية كاملة من القران الكريم معقبا عليها بقوله: الآية. يقول ابن نباتة:"إن أحسن قصص المؤمنين، وأبلغ مواعظ المتقين، كلام رب العالمين، قال الله تعالى: { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } (٤) وتقرأ: { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } إلى قوله تعالى: { وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } "(٥).

وقد سار ابن أبي الخصال في على نسق ابن نباتة، يقول: "إن أعذب الكلام وأسوغه، وأبدع النظام وأبلغه، كلام من أنزل على عبده الفرقان فبلغه...ثم ختم بقوله: "وتقرأ: { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } الآية"(٦).

---

(١) ديوان خطب ابن نباتة ص ٤١٨.

(٢) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال ص٥٣٧. وفيه:(ونار موقودة) وآثرت كتابتها(موقدة) لتتوازن مع قوله:(وجنات مونقة).

(٣) ينظر–على سبيل المثال-ديوان خطب ابن نباتة ص١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٩، وغيرها. وينظر رسائل ابن أبي الخصال ص٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، وغيرها.

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٠٤).

(٥) ديوان خطب ابن نباتة ص ٤١٨، والآيات (٢٦) إلى (٢٩) من سورة الحج.

(٦) رسائل ابن أبي الخصال ص ٥٨٩. والآية (٥٤) من سورة الأعراف.

٥- الاستفهام: هو وسيلة من وسائل التعبير المهمة، ولها دورها البارز في إثارة المتلقي وشد انتباهه، ومن نماذجه قول ابن نباتة: "أيها الناس: إن الله أَيَّهَ بكم، فهل أنتم سامعون؟، وندبكم إلى طاعته فهل أنتم إليها مسارعون؟، وزجركم عن معصيته، فهل أنتم عنها راجعون؟، وساومكم بنفوسكم فهل لها أنتم بائعون؟... (١).

ويقول ابن أبي الخصال:"ألا نادم على ما سلف من ذنوبه وفرَّط؟، ألا خائف من طول ما جمح وأفرَط؟، ألا مستنقض لنفس أوبقها وأشرط؟ ألا مناجيَ لمولاه؟ ألا هاجر لكراه؟ ألا حامد عند الصباح لسراه؟ ألا مبدد لعبراته؟ ألا مردد لحسراته؟... فماذا قدمتم للمقام الهائل؟ وما الذي أعددتم من جواب السائل؟، وقد ذَهِلْتم عن الأبناء والحلائل، إن كتمتم خذلتكم الجوانح، أو أنكرتم أقرت عليكم الجوارح، وواجهتكم من صحفكم الفضائح"(٢).

إن الاستفهام هنا يقوم بدور التخويف والتهويل، والكاتب يعتمد عليه في شد انتباه المستمعين ولفت انتباههم إلى مراد الله تعالى منهم، ودعوتهم إلى طاعته، وزجرهم عن معصيته، والتزود من التقوى والعمل الصالح، وقد اتخذه سبيلاً لتثبيت الفكرة, وتلوينًا لطرق الأداء في التعبير عنها، وقد جاء الاستفهام مناسبا للوعظ، متوائما مع الدعوة إلى الله، والحض على فعل الخير، وكان له دوره الواضح في إثارة الحركة في النص، وصبغه بالحيوية، ومشاركة المتلقي مع الكاتب تجربته الفنية.

٦ - الألوان البديعية: هي سمة عامة غالبة على النثر الفني في العصر العباسي، بل هي ميدان التنافس والبراعة، وقد سار الكتاب في الأندلس خلف المشارقة في مذاهبهم في الكتابة، والكاتب يلجأ إليها لتحسين العبارة، وإضفاء نوع من الجمال الفني على الأسلوب، وزيادة التنغيم الموسيقي، سيما إذا كانت قليلة، عفوية بعيدة عن التكلف، تلائم المعنى، وترسخ الفكرة.

ونكتفي بذكر نموذجين للسجع، ومن ذلك قول ابن نباتة: "فسابقوا-رحمكم الله- إلى الجهاد بقلوب نقية، ونفوس أبية، وأعمال رضية، ووجوه مضيّة، وخذوا بعزائم التشمير، واكشفوا عن رؤوسكم عار التقصير، وهبوا نفوسكم لمن هو أملك بها منكم، ولا تركنوا إلى الجزع فإنه لا يدفع الموت عنكم"(٣).

فهي دعوة من الكاتب إلى التشمير للجهاد، واستنهاض العزائم، واستحضار الشجاعة عند ملاقاة العدو، محذرا من التقاعس عن قتاله، والركون إلى الدعة، محاولا إيقاظ حمية الإيمان في القلوب. والسجع بين الفواصل:(نقية/أبية)،(رضية/مضية)، (التشمير/التقصير)،(منكم/عنكم) فضلا عما بينها من جناس ناقص يساهم في إثراء المعنى وتوضيح الصورة، ولفت انتباه المتلقي.

---

(١)ديوان خطب ابن نباته ص١٨٢، أيَّهَ بكم: ناداكم وقال لكم:أيها الناس. وينظر نماذج أخرى ص١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ٢٠٠.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص٥٣٨، ٥٣٩. وينظر نماذج أخرى: ص ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٣٨.

(٣) ديوان خطب ابن نباتة ص ١٨٩، ١٩٠.

وقول ابن أبي الخصال: "فاحتملوا رحمكم الله الخطب اليسير، واهتبلوا هذا الخطر الخطير، واعلموا أن النوم أهونُ واقعٍ أُطِير... فلا وعد الصدق تنتجزون، ولا فرصة الرحمة تنتهزون، وأنتم لو علمتم مستوفزون، وللسفر الطويل مستقبلون، ومن الزاد المبلّغ مُرْمِلُون، وللحساب مواجهون، وللمَلِكِ الحق مشافهون"(١).

إن السجع بين (اليسير/ الخطير/أطير)،(تنتجزون/تنتهزون/مستوفزون)، (مواجهون/مشافهون) يعين الكاتب على تحقيق هدفه في الدعوة إلى الله والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، وقد أحدث نوعا من الإيقاع الموسيقي الذي يزيد الأسلوب تنغيما.وكان اللون البديعي في هذه الخطب لبنة فنية تتآزر مع غيرها من لبنات بناء الخطبة لتزيد المعنى جلاءً ووضوحًا، ونظرة عابرة في هذه الخطب تؤكد ذلك.

٧- تآلف المعاني وترابطها: على الرغم من تنوع مضامين هذه الخطب فإنها تندرج تحت إطار واحد، يعمل على توفير التناغم والانسجام بين المعاني، وأقصد به: الدعوة إلى الله تعالى، والوعظ، والحض على التقوى والعمل الصالح، والتحذير من الدنيا، والعمل للآخرة،؛ هذه الأجواء تشكل محور ارتكاز لهذه الخطب التي ينوّع الخطيبُ على أساسها معاني كثيرة.

إن نظرة فاحصة فيها منذ البدء، ومرورا بالعرض، وانتهاء بالخواتيم، تجد تآلف المعاني، وترابطها، وتسلسلها في جو نفسي متماسك يفضي بنا في النهاية إلى الوازع الديني الذي يسيطر على الكاتب، والذي دفعه إلى الوعظ والدعوة إلى الله، وهذه الخطب وإن جاءت للتعليم، فهي دعوة صادقة من الكاتبين إلى التزود من العمل الصالح، والحض على قيام الليل، وذكر الله تعالى... الخ.

وقد جاءت المعاني في هذه الخطب سامية متآلفة مترابطة، يلفها جميعا ويربط بينها روح دينية واضحة، وجو إيماني، سيطر على نفس الكاتب وروحه، جعله يعبر عنه في هذه المواعظ الدينية التي فاضت بها قريحته، كما جاءت المعاني متوائمة مع الجو النفسي الذي يعيشه الكاتب، ملتحمة به، مفضية في النهاية إلى تماسك الشكل مع المضمون، معبرة عن إحساس الكاتب النفسي.

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص٥٣٩.

المبحث الرابع: آراء نقدية في بعض كتاب المشرق

لم يقف التيار المشرقي عند ابن أبي الخصال عند حد المعارضة، بل تعدى ذلك إلى النقد وإصدار الآراء والأحكام النقدية في بعض الكتاب، وفي رسائله رسالة طويلة(١) كتبها إلى أبي محمد عبد الله بن القاسم الفهري(٢) ردا على رسالته(٣) التي فاضل فيها بين أبي إسحاق الصابي(٤) وبديع الزمان الهمذاني(٥)، جوابا على سؤال وُجه إليه في الترجيح بين هذين الكاتبين وأيهما يقدم على الآخر.

استهل ابن أبي الخصال رسالته(٦) بما يؤكد أن الحكومة أمر صعب، فالتصدي للحكم بين أديبين أو الموازنة بينهما أمر يفتقر إلى التأني والروية، وكان القدماء يتحاشونه وينفرون منه قدر استطاعتهم، ويصدر الكاتب رأيه من البداية منتصرا للصابى على بديع الزمان، بل إنه يرى أن بديع الزمان ليس كفؤا للصابي، ثم راح يسوق الحجج التي اتكأ عليها في تفضيل الصابي على بديع الزمان، ويذهب للحكم على الكاتبين في الكتابة فيرى الصابي مطبوعا وينسب التكلف إلى بديع الزمان، ويجنح ابن أبي الخصال إلى الحديث عن أسلوب بديع الزمان وطريقته في الكتابة ويشيد بقدرته الأدبية، غير أنه لا يرضى بالموازنة بين الصابي والبديع، لان البديع ليس كفؤا للصابي، فهو يرفض الموازنة لكنه لا ينكر براعة بديع الزمان الأدبية، ويرى أن الأولى أن تقوم المفاضلة بين كاتب يبلغ شأو الصابي كالصاحب بن عباد، فالموازنة حينئذ متوافقة لأن فنَّهما - كما يزعم ابن أبي الخصال - واحد وهو الكتابة، ويرى أن لقب بديع الزمان ليس فيه من الفضل شيء، بل هو إلى الذم أقرب، وفي نهاية الرسالة يؤكد الكاتب على تقديم الصابي، وتأخير بديع الزمان.

---

(١) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال ص ١٣٩-١٥٦.

(٢) من كتاب القرن الخامس الهجري، كان أميرا على حصن البونت من أعمال بلنسية، لُقب بجماح الدولة، وقد بقي على إمارته حتى سنة ٤٨٥هـ، رحل إلى مدينة سلا بالمغرب وعاش بها بقية حياته، ولم تذكر المصادر تاريخ وفاته. ينظر في ترجمته: قلائد العقيان ٣٧٧/١. المُغرِب في حلى المغرب: ٣٩٦/٢.

(٣) ينظر الرسالة كاملة في: رسائل ومقامات أندلسية، تحقيق:د.فوزي سعد عيسى، ص١٩٦، ١٩٧، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٩م.

(٤) إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابي، كان كاتبا شاعرا، ولي ديوان الإنشاء ببغداد، ت٣٨٤هـ. ينظر في ترجمته: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي: تحقيق: د.مفيد قميحة ٢٨٧/٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م. معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): ياقوت الحموي، تحقيق:د. إحسان عباس١٣٠/١. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الأولى١٩٩٣م. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، تحقيق: د.إحسان عباس٥٢/١، دار الثقافة، بيروت، لبنان١٩٧٢م.

(٥) الكاتب المترسل، والشاعر البارع، والأديب البليغ، صاحب الرسائل البليغة، والمقامات العجيبة، من مشاهير الكتاب وفحولهم في القرن الرابع الهجري. ينظر في ترجمته: يتيمة الدهر ٢٩٣/٤. معجم الأدباء ٢٣٤/١. زَهر الآداب وثَمر الألباب: الحصري القيرواني، تحقيق: د.صلاح الدين الهواري ٣١٥/١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠١م. وغيرها.

(٦) تناولت هذه الرسالة بالدراسة والتحليل والنقد (بإسهاب وتفصيل) في بحث سابق بعنوان:(بديع الزمان الهمذاني في النثر الأندلسي) منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد الثامن والثلاثون، الجزء الأول١٤٤٠هـ- ٢٠١٩م، من ص٢٠٧-٢٢٠. وهنا أشير إلى ما يتصل بالأثر المشرقي فقط.

رؤيــة نقديــة

هذه الرسالة تؤكد عناية ابن أبي الخصال بأدب المشارقة، ومذاهبهم الفنية، وتكشف عن حس الكاتب النقدي، ونحاول الآن الوقوف على بعض آراء الكاتب النقدية من خلال هذه النقاط.

أولا- لماذا الصابي وبديع الزمان؟

إن رغبة الكاتب الأندلسي في التحدي وإظهار التفوق الأدبي جعلته لا يعارض، أو يقلد، أو يحتذي إلا الفحول من أدباء المشرق، لذا وجدنا معارضات شعرية للمتنبي، وأبي العلاء، وأبي تمام وغيرهم من فحول الشعراء في المشرق، كما وجدنا لدى الناثر الأندلسي محاولات كثيرة تحتذي طرائق سهل بن هارون، والجاحظ، وبديع الزمان الهمذاني، ورسائل المعري، ومقامات الحريري؛ وكاد كل كاتب يجد أنموذجه المفضل لدى واحد أو غير واحد من كتاب المشارقة(١).

وكان الصابي وبديع الزمان من الكتاب الذين علا ذكرهم وذاع صيتهم في الأندلس، يشهد بذلك ابن بسام في ذخيرته مشيدا بنثرهم، فهو في مستهل هذا الديوان الضخم الذي يفخر فيه بأدب الأندلسيين لم يجد أفضل منهما يتحدى بأدبهم أدبهما، يقول: "نثر لو رآه البديع لنسي اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولَّاه حُكمه"(٢). ويشيد بأدب ابن زيدون فيقول: "ولو قُرِعَ سمعُ أبي منصور بما في تضاعيف هذا التصنيف من الشذور، لما كان عنده ابن وشْمَكير بمذكور، ولا أَغْرَبَ بغرائب الصاحب، ولا ببديع البديع"(٣).

وابن أبي الخصال إنما يقر بفضل الصابي وبديع الزمان،-وإن كان يقدم الصابي ويؤخر بديع الزمان-ويراهما من أمراء البيان وبلغاء الكلام، يقول:"ولا يخلو أمراء البلغاء من أتباع يمشون على مدرجهم، ويقولون بحججهم، ويذبُّون عن منهجهم، ويحْمون حِماهم، ويرمون من رماهم"(٤).

فهذه النصوص وغيرها في أدب الأندلسيين تشف عن مكانة هؤلاء الكتاب، ومدى تقديرهم لأدبهم، فالصابي، وبديع الزمان، وكذلك الصاحب ابن عباد-وسيأتي ابن أبي الخصال على ذكره في تضاعيف الرسالة- عند أدباء الأندلس من كبار الكتاب وفحولهم في المشرق، وهم جميعا يمثلون الغاية في صنعة الكتابة في المشرق لدى الكاتب الأندلسي.

ثانيا- ابن أبي الخصال يقدم الصابي ويؤخر بديع الزمان

ذهب الكاتب إلى تفضيل الصابي على بديع الزمان، وأصدر حكمه من البداية، ثم راح يسوق الحجج التي اتكأ عليها في تفضيل الصابي، وهذه الحجج تتمثل في أن الصابي كاتب مطبوع سهل المعاني، يأتيه الكلام طواعية، وتنقاد المعاني له في يسر وسهولة، وله قدرة في جذب المتلقين والتأثير فيهم. يقول: "أبو إسحاق معينُ القولِ... كتُبه تُغْني عن الكتائبِ...وكيف تُجَارَى أقلامٌ أرضَعتْ الخلافة الهاشمية بلبَانها، وأوتْ إلى ربوةٍ ذات قرارٍ ومعين من بيانها، ونطقتْ فأفحمتْ الناطقين بلسانها؟!"(٥).

---

(١) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٢٨٤.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١١/١/١ .
(٣) السابق: ٣٧٢/١/١ .
(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٤٢ .
(٥) السابق: ص ١٤٦ .

كما تفنن الصابي في شتى موضوعات الكتابة من تعزية وعتاب، ومدح وهجاء وغيرها من الموضوعات والأغراض، فهو "إن عزَّى سلَّى، أو عاتَبَ سرَّى وجلَّى، وأمرَّ وأَحْلى، أو مدَحَ توَّجَ وحلَّى، أو قدحَ أخلقَ وأبْلَى، أو غرَّ سوَّل وأمْلى، لا جرمَ إنَّ له القلم الأعلى"(١). كما برع في نظم الشعر المنمق المهذب: "فأما نظْمُهُ فالأَرْيُ المَشُور، والفُستقُ المقْشُور"(٢). وهو يجري على نهج العرب وسنَنهم في الكتابة والشعر: "وهو -بعد- على مَهْيَع العرب، وأُسلوبها الأبعد الأقرب، لا يُحْرَمُ توفيقَها، ولا يخرمُ على حالٍ طريقَها"(٣).

والذي يقرأ كلام القدماء عن الصابي يقرُّ لابن أبي الخصال بما رآه وذهب إليه؛ فهذا أبو حيان التوحيدي في حديثه عن الصابي يقول: "أحبُّ الناسِ للطريقةِ المستقيمةِ، وأمضاهُم على المحجَّةِ الوسطى"(٤). ويقول الثعالبي: "أوحد العراق في البلاغة، ومن به تثنى الخناصر في الكتابة، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية، من البارعة والصناعة"(٥).

ويقول الكلاعي عن القسم الثاني من أقسام الترسيل الذي وسمه بـ (الحالي) "لأنه حلِّي بحسن العبارة، ولطف الإشارة، وبدائع التمثيل والاستعارة، يقول: "فممن جرى في هذا الباب ملءَ عنانه، وحاز قصب السبق في ميدانه، إبراهيم بن هلال"(٦). فالقدماء يقرون بسهولة أسلوب الصابي وبعده عن التكلف، بل ويؤكدون على ذلك، والمتأمل في رسائله يستطيع أن يتلمس ما ذهبوا إليه.

فنحن نوافق ابن أبي الخصال في تفضيله الصابي من هذه الناحية، وإن كانت النفوس لم تهف إلى قراءة رسائله لأن أكثر كتاباته في شؤون إدارية، إذ كان يكتب ما يُملى عليه(٧)، كذلك كان كما يقول أبو حيان التوحيدي: "وأبو إسحاق معانيه فلسفية"(٨).

وقد عاب الناس على الصابي كلفه بالصنعة والتقفية في المخاطبات الديوانية، يقول ابن خلدون: "فتعاطى الصنعة والتقفية وأتى بذاك بالعجب، وعاب الناس عليه كلفه بذلك في المخاطبات السلطانية، وإنما حمله عليه ما كان في ملوكه من العُجمة، والبعد عن صوْلة الخلافة المنفقة لسوق البلاغة"(٩)، لذا لم تهف النفوس إليها، ولعل اللافت فيها هي تلك الأجزاء الوصفية، ففيها يجيد الرصف، ويحكم القول، وفيها إسهاب واضح(١٠).

أما ما ذهب إليه الكاتب من أن الصابي تفنن في شتى موضوعات الكتابة، وكان بارعا في نظم الشعر، فكذلك كان الهمذاني، بل له القدح المعلى في هذا المضمار، فقد برع في الصناعتين،

---

(١) السابق: ص ١٤٦ .
(٢) السابق: ص ١٤٧ . الأري: العسل. المشور: من شار العسل استخرجه من الخلية.
(٣) السابق: ص ١٤٧ .
(٤) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي: صححه وضبطه وحققه: أحمد أمين وأحمد الزين، ٦٧/١، س الذخائر(٨٣)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٢م.
(٥) يتيمة الدهر: ٢٨٧/٢ .
(٦) إحكام صنعة الكلام: ص١٠٥ .
(٧) ينظر: يتيمة الدهر ٢٩٢/٢، معجم الأدباء ١٤١/١، ١٤٢.
(٨) الإمتاع والمؤانسة ٦٧/١.
(٩) مقدمة ابن خلدون (وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون): عبد الرحمن بن خلدون ٨٠٣/١، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٤٣١هـ- ٢٠٠١م.
(١٠) ينظر: النثر الفني في القرن الرابع الهجري: د. زكي مبارك ٣٦٣/٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٠م.

ورسائله التي ذاع صيتها في المشرق والمغرب خير شاهد، وهي تكشف عن براعته، وتميزه بين كتاب عصره، حتى أثنى عليه النقاد قديما وحديثا، وجعلوه في الطبقة الأولى من الكتاب، وكانت هذه الرسائل لسان عصره، وسجلا صادقا وتصويرا دقيقا لأحوال المجتمع الذي يحيا فيه، ونستطيع أن نجد ذلك واضحا فيها(١).

ثالثا- المفاضلة بين الصابي والصاحب أوْلى :

ذكرت أن ابن أبي الخصال يرفض المفاضلة بين الهمذاني والصابي، فهو يرى أن الهمذاني ليس كفؤا للصابي، فلا مجال إذًا للمقارنة بينهما، لأن ذلك أمر عسير، على المتهيئ له غير يسير: "فما بالك -أعزّك الله- تُقرِنه بالصعب، وتحارب به وقد أتي السَّلم ظَفَرا عالي الكعب"(٢).

فهو يرى المفاضلة بينهما باطلة من الأصل، ويرى أن الأولى أن تقوم المفاضلة بين كاتب يبلغ شأو الصابي كالصاحب، كما فعل ذلك الثعالبي في يتيمة الدهر(٣)، فالموازنة حينئذ متوافقة لأن فنَّهما - كما يزعم ابن أبي الخصال - واحد وهو الكتابة، يقول: "وما سمعتُ - ولا إخالني أسأتُ سمعًا - بينهما لأحدٍ من المتقدمين جمْعا، وقد ذكر الثعالبيُّ أبو منصور:...أنَّ المماثلة على المَسلك اللاحبِ، إنما وقعتْ بينهُ وبين الصاحب، وأنَّ الجَهابذةَ في ذلك أفاضوا، وجالوا بينهما وخاضوا، فهنالك رُمِي طوْدٌ بطوْدٍ، وزُوحِمَ عَوْدٌ بعَوْدٍ، وصُكَّ صلْد بصلْد، ووضع جَلد بإزاء جلد، وقُوّم نفيس بنفيس، وقووِم رئيسٌ برئيس"(٤).

إن الموازنة –في رأي الكاتب- ينبغي أن تكون بين الصابي والصاحب ذلك أنهما متكافئان؛ وهما متشابهان في أمور كثيرة: "كلاهما جرى في البحر والبر، وانتظم حاشيتيْ النفع والضر، وقام بالنهي والأمر، وحل من النفوس محل العذب الغمر، وباشتراكهما فيما يخرب، ومزاولتهما لكل ما يقرب من الأغراض ويعزب، يقع التمثيل والتعديل ويميل الناظر حيث يميل"(٥).

ونلاحظ أن ابن أبي الخصال يجعل من المنصب الذي يتولاه الكاتب شرطا من شروط المفاضلة،كما يجعل الموضوعات التي يكتب فها أيضا من شروطها،وهذا جديد لم نعهده من قبل في النقد والموازنة،ونرفضه من الكاتب؛ذلك أن النقد إنما يكون للأثر الفني دون النظر إلى منصب صاحبه.

وقد تولى الصابي عددا من الدواوين في الدولة البويهية ببغداد، وخدم الخلفاء والأمراء من بني بويه، وتقلد أعمالا جليلة، ومدحَهُ الشعراء، وعُرضت عليه الوزارة إن أسلم فامتنع، وكان ينوب عن

---

(١) ينظر: كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان: إبراهيم الأحدب الطرابلسي، دار التراث، بيروت ١٣٠٧هـ- ١٨٩٠م. الصفحات: ٨ ، ١٥، ١٦، ١٩ ،٢١، ١٠٥، ١١٢، ١١٦، ١٣١، ١٦١ ،١٦٢، ١٩٢، ٢٢١، ٢٧٠، ٢٧٥، وغيرها.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص١٤٧ .

(٣) يتيمة الدهر: ٢٩٢/٢ .

(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٥١ .

(٥) السابق: ص ١٥١ .

الوزير المهلبي في ديوان الإنشاء وأمور الوزارة، فرئِس ورأَس(١)، وكان بينه وبين الصاحب مراسلات ومواصلات، ومتاحفات(٢)، وصار بإمكانه أن ينفع ويضر، فالموازنة بينه وبين الصاحب أوْلى.

ثم يشيد ابن أبي الخصال بطريقة الآمدي في الموازنة بين أبي تمام والبحترى، ويضع هذه الطريقة في الموازنة منهجا وسبيلا يهتدى به من أراد: "وهذه موازنة الآمدي بين حبيب والبحتري إنما استنبطها من أثناء ما اشتركا فيه من يأس ورجاء، ومدح ورثاء، وتشبيه وتشبيب، وترغيب وترهيب، ولولا ذلك لما اعتدلت الأوزان، ولا وُضع الميزان، ولا تبينتْ الخِفة ولا الرُّجحان، فإن تعاطى الحكومة متعاطٍ وخطا إلى الفصل بينهما خاطٍ، فلْيؤصِّل للمماثلة أصلا، وليثْبت لهذا فصلا ولهذا فصلا، فمن وضع الهناء موضعَ الهناء، ولم يعدل عن جادّة أهل الدّهناء، وارتقى إلى البلاغة في أسبابها، وأتى بيوت الفصاحة من أبوابها، فذلك الذهب الإبريز، والسابق الذي له التبريز، وهذه الصفة لا تعدو أبا إسحاق، فقد أُعطي التِّمام، وجُنّب المَحاق"(٣).

إنّ موازنةَ الآمدي بين حبيب والبحتري خيرُ مثال يحتذى في هذا الأمر، وهذه الشروط -قياسا على هذه الموازنة-ينبغي أن تراعى في المفاضلة، وهي- كما يرى الكاتب- موفورة في الصابي معدومة في بديع الزمان، لذا فهي باطلة من الأساس لعدم توافر شروطها، وينبغي أن تكون بين الصابي والصاحب لأنهما مستوفيان لشروطها–في رأي الكاتب.

والكاتب يرفض الموازنة بين الصابي وبديع الزمان، لكنه لا ينكر براعة البديع الأدبية، يقول: "أما إنَّ لأبي الفضل فضْلا يُرْعَى، وهو بعد أبي إسحاق مَرعى"(٤)، فبديع الزمان له ماله من الفضل والإحسان، لكنه تابع فيه للصابي:"وليس على أبي الفضل في كماله نقص، لأنه إلا يكن صاحب رضوان، فهو تابع بإحسان"(٥)، وكأنه يجعل بديع الزمان تاليًا في الفضل والمكانة للصابي فينزله منزلة الصحابي، وبديع الزمان منزلة التابعي. ونفهم من هذا كله أن الكاتب يقدم الصابي والصاحب، ويؤخر بديع الزمان.

---

(١) ينظر: معجم الأدباء ١٣١/١. يتيمة الدهر ٢٨٧/٢.
(٢) ينظر: معجم الأدباء ١٣١/١.
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٥١، ١٥٢. الهناء: القطران. الدهناء: يعني العرب مطلقا. المحاق: البدر يوم التمام كامل، ويغيب البدر في المحاق في آخر الشهر القمري.
(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٤٩.
(٥) السابق: ص ١٥٥ .

رابعا- رأي ابن أبي الخصال في بديع الزمان ومقاماته

يصدر الكاتب رأيه من البداية في بديع الزمان فيقول: "وأبو الفضل وإن كان كما سُمّي بديعا، ولأخْلافِ البلاغةِ رضيعا، لا يُقاس بأبي إسحاق رأسًا، ولا يجعَلُ له سلما ولا بأسًا، لأنهما وإن جمعهما أصلُ اللسانِ، ومزاولةُ الإحسان، كالثُّريَّا وسُهَيل لا يلتقيان، ولا يشْتبِهانِ فيما ينْتقيان"(١).

ويرى ابن أبي الخصال مقامات بديع الزمان-التي بزَّ فيها وبرز- حيلًا وألاعيبَ، وأنها من قبيل الهزل، بعيدة عن الجد، يقول: "أما إنَّ لأبي الفضل فضْلا يُرْعَى، وهو بعد أبي إسحاق مَرعى، ويُدْعَى إثْره أوّلَ مَنْ يُدْعَى، من رجلٍ لطيفِ الحيلة، مُشَخِّصٍ للأوهامِ المُستحيلة، إن أصاب فُرصَةً قتَل، وإن أخطأَها ختلَ، ومسحَ بالذُّروةِ والغاربِ وفتل، ضيَّق من الكلام ما توسَّع، ورقَعَ الكُوى بالمَحاجر ورصَّعَ، وشعَّبَ وفرَّعَ، واخترعَ من تلكَ الأخاليق ما اخترعَ، فأحسنَ وتمَّم، وأدرك من تلك الغاية ما يمَّمَ... وأنا لا أعدلُ الهزلَ بالفصلِ، ولا الخَيْزُرانَةِ بالنَّصْلِ"(٢). ولا يصح في رأيه أن يحكم بين الجد وهو كلام الصابي، والهزل يعني مقامات بديع الزمان.

وهذا القول مردود عليه، فالمتأمل في مقامات الهمذاني يجد أنها لسان حال المجتمع الذي كان يحيا فيه، وهي تكشف عن صورة الظلم والحرمان، والبؤس وسوء الحال الذي كان يحياه الأدباء في القرن الرابع الهجري، لقد كانت سجلا صادقا للحياة والواقع، فقد رأينا حقيقة نفوس الناس، وطبيعة حياتهم، وظروف معاشهم ومعاملاتهم، والهمذاني في مقاماته "يقدم لنا صورة توشك أن تكون متكاملة، إذ يحدثنا عن مجالس أهل العلم والأدب وما يدور فيها من مساجلات ومناظرات؛ ومجالس الشراب والطرب وما يدور فيها من أقداح وآلات؛ ويحدثنا عن الوعاظ والمساجد والأسواق، والدور والحمامات، والحوانيت، والمطاعم، والحانات؛ وهو يرسم لنا من خلال ذلك كله كثيرا من صور الذين يتحدث عنهم بأزيائهم وهيئاتهم حتى نوشك أن نراهم بثيابهم، ونستمع إليهم بألفاظهم؛ ونرى مرآة الناس وشخصياتهم في أعمالهم وتصرفاتهم"(٣).

إن في مقامات الهمذاني تبدو صورة المجتمع الذي يحيا فيه واضحة، ففي المقامة البغدادية(٤) وصف للسوق وما فيه من المطاعم والحوانيت وأنواع الطعام، وفي المقامة الخمرية(٥)يبدو جانب اللهو والمجون، وفي الرُّصَافية(٦) نرى فئة اللصوص وحيلهم، والطرَّارين وعملهم، وفي الأهوازية، والوعظية، والخمرية(٧)نموذج للواعظ الذي يخالف قوله فعله، والحديث عن الأدب والشعر نراه

(١) السابق: ص ١٤٣، ١٤٤. تهم: هام: تحير واضطرب.
(٢)السابق: ص ١٤٩ -١٥١.
(٣) مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته:د.مازن المبارك: ص٣٥، دار الفكر، دمشق، الثانية١٤٠١هـ ١٩٨١م.
(٤) ينظر: مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ٤٩.
(٥) ينظر: السابق: ص ٤٦.
(٦) ينظر: السابق ص ١٤٨. الطرارون: الذين يختلسون المال خفية.
(٧) ينظر: السابق ص ٤٦، ١١٦، ٢٨١.

واضحا في القريضية، والجاحظية والعراقية(١). والصورة الهزلية في مقامات بديع الزمان قليلة، فهي واحدة من الموضوعات الكثيرة التي ولجتها مقامات الهمذاني، وهو يستعين بها في نقد سلبيات المجتمع، كما جاء في المقامة البغدادية، والمضيرية، والحُلوانية(٢)، وغير ذلك من الصور والموضوعات التي تؤكد أن المقامة ولجت شتى الموضوعات، وأكدت أن النثر – كالشعر - قادر على ارتياد شتى الأغراض. وهذا كله ينفي ما رمي به ابن أبي الخصال المقامات، ويدحض حجته من جعلها هزْلا لا طائل منه، وألاعيب لا ثمرة من ورائها.

والعجيب أن ابن أبي الخصال الذي يرى المقامات حيلا وألاعيب وأنها من قبيل الهزل الذي لا طائل من ورائه- كتب مقامة طويلة عارض بها الحريري في بعض مقاماته(٣).

كما يرى ابن أبي الخصال أن لقب بديع الزمان منقصة له وليس فخرا، إذ لا وجود له في أصول نسبه ولا فروعه، يقول: "وأما فخرُكَ له باللقب الذي لا يُسَوَّغهُ الشَّرعُ، ولا يحملهُ الأصلُ ولا الفرعُ، فهو إلى أن يكون غِلَّ إِسَارٍ، أقربُ منه إلى أن يكون طَوْقَ نُضَار"(٤).

وأقول: إن أحدا لا يستطيع أن ينكر براعة بديع الزمان الأدبية واللغوية، وشهرته الفائقة في المشرق والمغرب خاصة مقاماته، بعدما طار ذكره في الآفاق بعد مناظرته لشيخ الكتاب في عصره أبي بكر الخوارزمي، وهذا اللقب- الذي جعله ابن أبي الخصال منقصة للهمذاني- أطلقه عليه معاصروه لما رأوه من بلاغته وإجادته وبراعته في الكتابه(٥)،"وليس هناك كاتب في القرن الرابع نال من التمجيد والثناء ما ناله بديع الزمان، وحتى اسمه لا يعرفه الناس، وإنما يعرفونه بلقبه الذي أطلقه عليه معاصروه، وإنه ليفصح عن مدى إعجابهم به"(٦). ولا أدل على ذلك من قول الحريري معترفا بفضله في مقدمة مقاماته: "هذا مع اعترافي بأن البديع-رحمه الله- سباق غايات، وصاحب آيات، وأن المتصدي بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغة قدامة، لا يغترف إلا من فضالته، ولا يسري ذلك المسرى إلا بدلالته"(٧). وقول الشريشي شارح مقامات الحريري:"وقد صرح علماء الأدب في كتبهم بتفضيل البديع على نظرائه من أهل زمانه، ولقبه بالبديع يدل على قدره الرفيع"(٨). فلقب بديع الزمان هو دليل على مكانته الأدبية وبراعته الفنية(٩).

---

(١) ينظر: السابق ص ١١، ٥٨ ، ١٢٩.
(٢) ينظر: السابق ص ٤٩، ٨٣ ، ١٦٠ .
(٣) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٢٠. وهي التي وقفنا معها بالدراسة في المبحث الأول.
(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٥٤ .
(٥) ينظر: يتيمة الدهر: ٢٩٣/٤. زهر الآداب: ٣١٥/١ .
(٦) الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص ٢٤٠ .
(٧) شرح مقامات الحريري: ٢٤/١.
(٨) السابق: ٣٢/١.
(٩) ينظر: بديع الزمان الهمذاني في النثر الأندلسي، للباحث، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد (٣٨)، ج١، ١٤٤٠هـ-٢٠١٩م، ص٢١٥-٢٢٠.

خامسا- ابن أبي الخصال يتبع طريقة بديع الزمان في الكتابة مع ثورته عليها

في رسالة ابن أبي الخصال ما يكشف عن ثورته على طريقة بديع الزمان في الكتابة التي صارت مثلا يحتذى في المشرق والمغرب، وقد عبر عن ضيقه بهذه الطريقة التي وقع أسيرا لها كثير من الكتاب وهو منهم، وقد اعترف بأنه اضطر لاتباعها مجاراة للذوق السائد آنذاك.

يقول ناسبا التكلف إلى بديع الزمان ومن تبعه من الكتاب، وينفيه عن الصابي: "وكيف يتعسَّف أو يتكلّف من يدعو الحِكَمَ فلا تتخلّف، وتنقادُ له البلاغةُ طوعًا وتتألّف، وتتصدى إليه البِدَعُ فيأخذُ منها ما يشاءُ ويدع، وهل نفسُ التكلف إلا ما دَفعَ البديعُ إليه، وتبِعنَاهُ- مَعْشَر الضعفاءِ- عليه، حين عدلنا عن المنهجِ، ودخلنا تحت الحَرَجِ، ولو شاء الله بنا يسرًا، لوضعَ عنا من هذهِ المشقة إصرًا، فالصابي ينسِّق أعلاقا، ونحن نلفق أخلاقا، ونكابد-ومفاتح غناه تنوءُ بالعصبة أولي القوة- إملاقا، وعمدةُ إحساننا حين تعزمُ، إنما هي لزوم ما لا يلزم، ومقابلاتٌ يُبدأُ بها الكلامُ ويُختم، يعثُر فيها القلمُ، ولا يكاد يقيمها اللسان والفم، فكأننا نُضارع الدرّ بضَريع، ونُحاسنُ بالهشيم خُضرة الربيع، ونضرة الرّوض المَريع"(١).

وهذا النص يكشف بوضوح عن أثر المشارقة في أدب الأندلسيين وكتاباتهم، فقد كانوا يرون اتباعَهم لطريقة المشارقة تفوقا لهم، وابن أبي الخصال هنا يشير إلى طريقة بديع الزمان في الكتابة وعنايته بالمحسنات البديعية والزخرفة اللفظية، وهي- في رأيه- طريقة فيها تكلف يبعده عن الطبع وفيها خروج على المألوف المعروف عند العرب، كما يكشف لنا طريقة ابن أبي الخصال ومذهبه الفني في الكتابة فهو ينتصر لأسلوب الصابي في الكتابة ويثور على أسلوب ومذهب بديع الزمان الذي يعتمد الالتزام بالمحسنات البديعية والزخارف والمقابلات اللفظية، والتلاعب في الألفاظ والتراكيب، والتلفيق أحيانا بين التراكيب، والاعتماد على لزوم ما لا يلزم.

وإن تعجب فعجب انتصار ابن أبي الخصال للصابي ومذهبه الفني مع اتباعه طريقة بديع الزمان في الكتابة، ومع هجومه على السجع والحلى اللفظية فإن نثره يكتظ بهذه الأساليب، وقد ذكر ذلك في رسالته، يقول: "وهل نفسُ التكلف إلا ما دَفع البديعُ إليه، وتبعناهُ– معْشَر الضعفاء- عليه، حين عدلنا عن المنهج، ودخلنا تحت الحَرج؟!، ولو شاء الله بنا يُسْرا، لوضع عنا من هذه المشقة إِصْرا"(٢). فهذه شهادة صريحة باتباعه مذهب بديع الزمان الفني في الكتابة.

فابن أبي الخصال وإن كان لا يرضى بطريقة بديع الزمان في الكتابة فإنه قد سار خلفها وركبها، لأنها كانت هي السائدة في ذلك الوقت، وهي دليل البراعة والمهارة، يقول إحسان عباس: "اتسعت النماذج التي أصبح النثر الأندلسي قادرا على محاكاتها وتعددت، إذ أصبح التراث المشرقي لدى الناثر الأندلسي يضم طرائق سهل بن هارون، والجاحظ، وكتاب القرن الرابع الهجري، وبخاصة بديع الزمان الهمذاني"(٣).

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٥٣ .
(٢) السابق : ص ١٥٣.
(٣) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٢٨٤.

سادسا- تتبع الأندلسيين لآثار المشارقة الأدبية ومذاهبهم الفنية والنقدية.

إن رسالة ابن أبي الخصال تكشف لنا عن تتبع الأندلسيين للحركة الأدبية والنقدية في المشرق، وتعلقهم بآثاره وأخباره، يكشف عن ذلك قول ابن أبي الخصال مبينا أثر رسالة ابن القاسم في أنصار الصابي، يقول: "ووقفتُ لكَ منذُ أيام على نفثاتٍ غُرٍّ، وكلامٍ بين الصابي والبديع حرٍّ... لكنك- والله يغفر لك- جرَّعْتَ الصابي منهُ صابًا، وملأْتَ صدورَ شِيَعِهِ أوْصابا، فهُمْ بين جُموعٍ مُنفضّةٍ، ودموعٍ مُرْفضَّة، ونواظرَ كليلةٍ، وخواطرَ فليلةٍ، ينظرون من طرف خفيٍّ، ويتظلمون منك من بَرٍّ حفيٍّ، لا يستقل لهم لواء، ولا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء"(١).

وهذا الكلام يوحي بحيوية الساحة الأدبية والنقدية في الأندلس، فالكاتب قرأ رسالة صاحبه منذ أيام معدودات، فقام من فوره يرد عليها وينقضها: "ووقفتُ لكَ منذُ أيام على نفثاتٍ غُرٍّ، وكلامٍ بين الصابي والبديع حرٍّ"، والأمر يهون إذا لم تُدوَّن هذه النفثات، وتُخلّد تلك الكلمات: "فالحذر من النصوص، والبيان ما لم يخرج إلى العموم عن الخصوص، ولم يثْبُت في الصحف كالبنيان المرصوص، هباءُ حَلبة، وبهاءُ عُلبة: يعلو ويثور، ولا يكونُ إلا ريثَ ما يحُور، فأما ما يُدوَّن ويُخلّد فقد أصبح مذهبًا يُتقلَّد، وغرضًا يُتشعّب فيه القول ويَتولّد"(٢).

كما يكشف هذا النص عن صراع محتدم بين مذهبين أدبيين مشرقيّين، مذهب الصابي ومذهب بديع الزمان، وقد صار لكل منهما أنصار من كتاب الأندلس يتبعون مذهبه ويدافعون عنه، فللصابي أنصاره، وكذا يفهم أن لبديع الزمان أيضا أنصارا يتبعون مذهبه وينهجون نهجه في الكتابة، ولا عجب؛ فهما من أمراء البيان وبلغاء الكلام: "ولا يخلو أمراء البلغاء من أتباع يمشون على مدرجهم، ويقولون بحججهم، ويذبون عن منهجهم، ويحمون حماهم، ويرمون من رماهم"(٣).

وفي هذا ما يوحي بأن الأندلس تنظر إلى كتَّاب المشرق وآثارهم نظرة تقدير وتوقير، وتتابع الحركة الأدبية والنقدية بتأنٍّ وتأمُّلٍ شديدين، وهذا يؤكد في النهاية على مكانة الصابي والهمذاني وأثرهما في النثر الأندلسي، وعلى الأثر الواضح للمشارقة في الأدباء الأندلسيين، وتعكس بوضوح عناية ابن أبي الخصال بالأدب المشرقي، ونظرته إليه، وتكشف عن الأثر المشرقي الواضح في رسائله وتأثره به.

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٤٣. الأوصاب: جمع وصب وهو الوجع والمرض. مرفضّة: أرفض الدمع ارفضاضا: سال وتفرق وتتابع سيلانه. لسان العرب(رفض). فليلة:الفلُّ: تثلم في السيف، أي مكسورة. كليلة: حسيرة خاسئة.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٤٢. العُلبة: قدح ضخم من خشب أو من جلد الإبل يحلب فيه، فالكلام الذي لا يدون قد يذهب ولا يثبت، كغبار حلبة السباق، ورغوة الحليب سرعان ما يذهبان.

(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٤٢ .

المبحث الخامس: الشعر

هو المادة الثالثة للكتابة بعد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، لذا يجدر بالكاتب أن يكون حافظًا للأشعار، عارفًا بروايتها، فاهمًا لمراميها. يقول ابن منجب الصيرفي: "ويجبُ على الكاتبِ أن يكونَ حافظًا للأشعارِ راويًا للكثيرِ منها، يَستشْهِد بما عساهُ يَحْسُنُ الاستشهادُ بهِ في بعض المواضعِ، فإنهُ للمنظومِ من البهجةِ في النفسِ، والوقْعِ في القلبِ ما ليسَ للمنثورِ، وربما حلَّ منهُ ما يحتاجُ إليه فأتى به منثورًا في أثناءِ رسائلهِ وطَيِّ إنشاءاتهِ"(١). لذا وجدنا الشعر تفوح نسائمه، وتشع ظلاله بألفاظه ومعانيه وصوره في نثر الكتاب، "اقترن بخطبِهم، ومقامِ وعظهم، وكتبهم، ورسائلهم"(٢).

إن وقوف الكاتب على نتاج من تقدمه من الشعراء والكتّاب له أبلغ الأثر في كتاباته؛ "لأنّه يعلم منه أغراض الناس، ونتائج أفكارهم، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك، فإنّ هذه الأشياء مما تشحذ القريحة، وتذكي الفِطْنة، وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفا بها تصير المعاني التي ذُكِرَت وتعب في استخراجها، كالشيء الملقى بين يديه، يأخذ منه ما أراد، ويترك ما أراد"(٣).

وكان الأندلسيون يثنون على من يُحسن المزج بين الشعر والنثر، فأبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم يصف رسالة للوزير الفقيه أبي حفص الهوزني قائلاً: "وردني كتابُكَ الأثيرُ، المقابل بين النثر البليغ، والنظم البديع، تصرفتَ فيه تصرُّفَ منْ إذا حاك طرّز، وإذا غشيَ ميدانَ البيان برّز، وأخذ بآفاق العلوم، وأشرقت خواطره فيها كإشراق النجوم، وإنها لفضيلة بَعُدَ فيها شأوك، وفات جهدَ المجارين لك عفوك"(٤).

وكانوا يعتذرون عن عدم المزج بينهما، فابن القصيرة يعتذر لأبي القاسم بن الجد عن خلو رسالته من الشعر، يقول: "وأنا أعتذرُ إليكَ من الاقتضاب، وأن لا ألم في النظم بجواب ... وأنتَ بمعاليك تقبل العذر، وتتأوّل- أجملَ تأوّلٍ- الأمر"(٥).

وقد عُنِي ابن أبي الخصال بهذا الأثر المشرقي عناية بالغة، واحتفل به احتفالا واضحا في رسائله، استشهادا، وتضمينا، وحلا، وتلميحا، وهو يكشف عن حسن اختياره، وثقافته، واتصاله الوثيق بالتراث الشعري والأدبي السابق عليه؛ توجه صوبه يسترفد منه ما يكون له عونا في إثبات فكرته وترسيخها، وتوضيح معانيه وإبرازها.

---

(١) القانون في ديوان الرسائل: ص١١.

(٢) الظاهرة الشعرية في مقامات بديع الزمان الهمذاني: د. مصطفى إبراهيم حسين، ص١١٨، مجلة الدارة السعودية، العدد الرابع، السنة (١٤)، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، تحقيق:د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، ٥٩/١، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٣م.

(٤) الذخيرة : ٢٠٥/١/١

(٥) السابق: ٢٩٧/١/٢..

وقد جاء الشعر المشرقي في رسائل ابن أبي الخصال على صور، منها:

١- أن يأتي الكاتب ببيت أو أكثر يستفتح به رسالته: ومن نماذجه:(من البسيط)

إنـــي أعزيـــكَ لا أنّـــي علـــى ثقـــةٍ مـــن البقـــاءِ ولكـــنْ ســـنةُ الـــدينِ

فمـــا المعـــزَّى ببـــاقٍ بعـــد صـــاحبهِ ولا المعـــزِّي وإن عاشَـــا إلـــى حـــين(١)

كتبته وقد دهم المصابُ بالأخت البرَّة، كرم الله مثواها ومنقلبها، ورفع في جناته درجاتها ورتبها، ما لفح الأكبادَ حَرُّه، وصدع الفؤاد ذكرُه، ولما غار الحزن وأنجد، وصوَّب الوجد وصعد، أهاب داعي النَّهي فلبَّيتُ، وصدع زاجرُ الحلم فانثنيت"(٢).

بهذا الاستهلال البليغ المؤثر استهل الكاتب تعزيته بهذين البيتين، وهما يؤكدان على حرصه على التعزية اتباعا للسنة، وهو توجه إسلامي مطبوع في نفس الكاتب في مثل هذا الموقف، طمعا في الثواب، وحرصا على مؤازرة صاحب المصاب في مصابه والتخفيف عنه، وتذكيره بقضاء الله تعالى وقدره، واليقين بنفوذ مشيئته وإرادته، وحضه على الصبر والتسليم، واطراح الجزع، وحسن الظن بالله تعالى، رجاء جزاء الصابرين.

وهي توطئة شعرية تشهد للكاتب بالبراعة وحسن اختيار الشعر، وتوظيفه توظيفا فنيا يفي بغرضه ويخدم رسالته ويؤكد على ترابط الشعر بالنثر، واتحادهما في إبراز المعنى وترسيخ الفكرة في ذهن المتلقي، واستفتاح الكاتب رسالته بالشعر المشرقي واضح بين في رسائله(٣).

٢- وقد يستشهد الكاتب بالشعر؛ فيقول: كما قال فلان، فيأتي بالشعر كما قاله صاحبه دون تغيير فيه،ومن ذلك قوله في مقامته:"قال الحارث بن همام: لما نضوت ثياب الغر الغَمْر ،وارتقيت قليلا في دَرَج العُمْر...حتى دفعت إلى الفَدَّادين أهل الفخر والخيلاء،فألفيتهم كما قال زهير:(من الطويل)

وفـــيهم مقامـــاتٌ حِسَـــانٌ وجـــوهُهمْ وأنديـــــةٌ ينتابُهـــــا القـــــولُ والفعـــــلُ

علـــى مُكْثـــرِيهم رزقُ مـــن يَعْتـــريهمُ وعنـــدَ المُقِلّـــينَ الســـماحةُ والبـــذلُ(٤)

قال: فبينا نحن بخُناصرة، إذ نشأت بحرية.."(٥) .

---

(١) البيتان للإمام الشافعي، ديوانه، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي، ص١٢٠، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م. وفيه:(إني أعزيك لا أني على طمع من الخلود..)

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص٦١٩.

(٣) ينظر نماذج أخرى لاستفتاح الكاتب رسائله بالشعر المشرقي: رسائل ابن أبي الخصال:ص ١٥٦ ،١٧٠، ٤٦٦.

(٤) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة: أبي العباس ثعلب ص١١٣، ١١٤، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م.

(٥) ينظر: رسائل ابن أبي الخصال، ص٤٢٠، ٤٢١. الفدادون: أصحاب الفدادين، جمع فدّان: الثوْران يُقرن للحرث بينهما. خناصرة: اسم بلدة. بحرية: أي سحابة توشك أن تمطر.

والبيتان يكشفان عن غرض الكاتب ويقويان الفكرة، وهي أن هؤلاء القوم يتسمون بالبذل والسخاء والندى، فمياسيرهم يقومون بحق فقرائهم، كما أن فقراءهم يبذلون قدر استطاعتهم فكلهم أهل سماحة وعطاء وبذل(١).

٣- وقد يأتي الكاتب بالشعر على سبيل التضمين، ومن ذلك قوله: "اللهم طهِّرْها من دَنَسِ الدَّعوة، واجعلني فيها مستجاب الدَّعوة، حتى ندعوَها لأبيها، ونتبعَ الأقسطَ عندك فيها، أولى لهذا المتوهم–ساء ما حكم- ويا بُعْدَ ما توهم:(من الخفيف)

أيهـــا المـــنكح الثريـــا ســـهيلا -عمـــرَك الله- كيـــف يلتقيـــان؟

هـــي شـــامية اذا مـــا اســـتقلت وســـهيل إذا اســـتقلَّ يمـــان(٢).

هذه فقرة من رسالة يعتذر فيها ابن أبي الخصال إلى صديقه الوزير الكاتب ابن عبد الملك بن سراج عما نسب إليه من تأليف المقامة المعروفة بالقرطبية، والكاتب هنا يتنصل من كتابتها ويعتذر عما نسب إليه ويؤكد على ذلك في رسالته، وهو هنا يدعو الله تعالى أن يُعرف كاتب هذه المقامة لتنسب إليه، وليثبت لمن توهم وأساء إليه أنها ليست له، فما كان ليسب صديقه الأثير عنده .

والبيتان يكشفان عن بعد أسلوب المقامة ومضمونها عن أسلوب ابن أبي الخصال ومذهبه الأدبي، كما يؤكدان على نسبتها إلى غيره بلا شك، وهما يوحيان بمقدرته الأدبية في استدعاء الشعر الذي يكشف عن غرضه ويؤكد على ما يذهب إليه، كما نلاحظ التناسب والتواؤم بين الشعر والنثر في الكشف عن المعنى، والتأكيد على الفكرة(٣).

٤-حل المنظوم: أو نثر المنظوم، وهي من الصور البارزة في رسائل ابن أبي الخصال، حيث يتجه الكاتب إلى حلّ البيت الشعري أو جزء منه ونثرِه، وبثه في تضاعيف رسالته، والتمثل بمعناه، وهو "أن يعمد الكاتب إلى الأبيات من الشعر ذواتِ المعاني فيحُلَّها من عُقُلِ الشعر ويسْبُكها في كلامه المنثور"(٤).

وقد رأى الكلاعي: أن حلَّ المنظوم ونثره "طريقةٌ للكتَّابِ أنيقةٌ"(٥)، وهو دليل براعة الكاتب وإجادته. والحل باب واسع لا يتصرف فيه إلا العارف به، المُجيدُ فيه "وملاكُ أمر المتصدي له أن يكونَ كثير الحفظِ للأحاديثِ النبويةِ والآثارِ والأمثالِ والأشعارِ؛ ليُنفق منها وقت الاحتياج إليها"(٦).

---

(١) ينظر نماذج أخرى : رسائل ابن أبي الخصال: ص١٦٩ ،١٧٤، ١٧٥ ،٢٣٣، ٢٥٨، وغيرها.

(٢) السابق: ص ٣٥٩. والبيتان ينسبان لعمر بن أبي ربيعة، شرح ديوانه، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ص ٤٩٥، مطبعة السعادة، القاهرة ، الأولى ١٣٧١هـ-١٩٥٢م. وقد سارا مثلا في كل أمر اختلف طرفاه.

(٣) ينظر نماذج أخرى : رسائل ابن أبي الخصال ص ١٤٤، ١٤٥ ،١٧٠، ٤٨٦، ٤٨٧، وغيرها.

(٤) صبح الأعشى ٢٨١/١.

(٥) إحكام صنعة الكلام : ص ١٤٤.

(٦) حسن التوسل إلى صناعة الترسل: شهاب الدين محمود الحلبي: تحقيق ودراسة: د. أكرم عثمان يوسف، ص ٣٢٥، وزارة الثقافة والإعلام، العراق ١٩٨٠م.

وابن أبي الخصال أجدر أن يكون من المتصدين له المكثرين منه، فقد توافرت نماذج حل أشعار المشارقة في رسائله بصورة واضحة؛ ومن ذلك قوله في وفد الرحمن: "سَعِدوا بالمقدور، وبلغوا حاجةً في الصدور، ونالوا من تلك المشاهد المعظَّمة هواهم، وقضوا من مِنًى أقصى أوْطارهم ومناهم، وسالت الأباطح بأعناق مطاياهم، وزاروا تربة الشفيع، وحلوا بمناخه العبِقِ الرفيع"(١).

فالكاتب يغبط الحجيج الذين يسر الله لهم أداء فريضة الحج على هذه النعمة التي أكرمهم الله بها، فقد سعدوا بمشاهدة تلك المعاهد الكريمة، ونالوا أمانيهم بمعاينتها، والوقوف بحرم المقام النبوي الشريف. وقوله: "وقضوا من منى أقصى أوطارهم ومناهم، وسالت الأباطح بأعناق مطاياهم" من قول كثير عزة، -وينسب لغيره-: (من الطويل)

ولمّـا قضَـينا مِـن مِنـى كـلَّ حاجـةٍ ومسَّـحَ بالأركـانِ مَـن هـوَ ماسـحُ
وشُـدت علـى حـدب المهـارى رحالنـا ولا يعلـم الغـادي الـذي هـو رائـح
أخـذنا بـأطرافِ الأحاديـث بيننـا وسـالتْ بأعنـاقِ المَطِـيِّ الأباطحُ(٢).

ونلاحظ براعة الكاتب في تطويع النص الشعري لخدمة غرضه، وملاءمته للسياق والمعنى الذي أراده، مما زاد المعنى وضوحا، والفكرة عمقا، وأضفى على نثره القوة والأصالة.

ومن ذلك قوله في مستهل خطبة: "وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة وقرَتْ في الضمير وسكنتْ، وصادفت القلبَ فارغًا من سواها فتمكنتْ"(٣). فواضح أنه يستقي من قول مجنون ليلي:(من الطويل)

أتـاني هواهـا قبـل أن أعـرف الهـوى فصـادف قلبـا خاليـا فتمكنـا(٤)

وهو يكشف عن تعلق الكاتب بربه، ويوحي بإيمانه بالله -تعالى- وحده، واعتقاده بوحدانيته سبحانه، وتمكن الإيمان من قلبه، واستسلامه لله رب العالمين.

ومن ذلك قوله وقد طلب إليه ابن بسام- صاحب الذخيرة- شيئا من نثره فاعتذر منه: "وعُذرِي إليكَ- أعزكَ اللهُ- في أني خطَطتُّ والنومُ مُغَازِلٌ، والقُرُّ مُنازلٌ، والريحُ تلعبُ بالسراجِ، وتصُولُ عليه صَولةَ الحجّاج، فطورًا تُسدِّدَهُ سِنَانًا، وتارةً تُحرّكهُ لِسَانًا، وآونةً تطوِيهِ حَبابةً، وأُخرى تَنشُرهُ ذُؤَابةً... والكلبُ قد صافحَ خَيْشُومُهُ ذَنَبَهُ، وأنكرَ البيتَ وَطُنُبَهُ، والْتوَى التواءَ الحُبابِ، واستدارَ استدارةَ الحَبابِ"(٥).

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٣٩١ .
(٢) ديوان كثير عزة، تحقيق:د. إحسان عباس ص٥٢٥ ، دار الثقافة، بيروت ١٣١٩هـ- ١٩٧١م.
(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥٣٥.
(٤) ديوان مجنون ليلى: تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ص٢١٩، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة ١٩٧٩م.
(٥) رسائل ابن أبي الخصال:ص٦١٧، ٦١٨، الذخيرة:٧٩٢/٢/٣. الحجاج : يعني الحجاج بن يوسف الثقفي. حَبابة: فقاعة الماء. الطُّنب: الحبال يشد بها الخيمة، الحُباب(بالضم):الأفعى.

قوله: "وتصُولُ عليه صَولةَ الحجّاج" هو من قول جرير في الحجاج بن يوسف: (من الكامل)

مــن ســد مطلــع النفــاق علــيهمُ أم مـن يصـول كصـولةِ الحجـاج(١)

وهو يكشف عن شدة الريح وقوتها، وتأثيرها على فتيل السراج، فهي تعبث به لضعفه ووهنه، وتذهب بضوئه يمينًا ويسارًا، تحاول أن تُطفِئ وهجه من شدتها، فتارة نجد ضوء السراج كالسنان، وتارة تحركه فتجعله كاللسان، وتارة كإبرة من اللهب، وأخرى يصير كحلقة من ذهب، وهو تصوير يشف عن براعة الكاتب في الوصف.

وقوله: والكلبُ قد صافحَ خَيْشُومُهُ ذَنَبَهُ، وأنكرَ البيتَ وَطُنُبَهُ، من قول الشاعر(من البسيط)

فــي ليلــةٍ مــن جُمــادى ذاتِ أنديــةٍ لا يُبصـر الكلـبُ مِـنْ ظلمائِهـا الطُّنُبَـا

لا ينــبحُ الكلــبُ فيهــا غيــرَ واحــدةٍ حتــى يلُـفَّ علـى خرطُومـهِ الـذَّنَبا(٢)

وهو تصوير يكشف عن سواد ليل بهيم، ويشف عن برد قارس شديد البرودة، فهو يصور كلبا تراكمت عليه الثلوج فغطت جسده في هذا الظلام الدامس، وقد لوى ذيله ولف نفسه طلبا للدفء، وكاد يتجمد من شدة البرد الذي حال بينه وبين النباح والهرير، حتى أنكر البيت وطنبه فلم يهتد إليه.

٥- التعلق بألفاظ الشعراء وصورهم ومعانيهم: وهو مما يكشف عن تعلق الكاتب الواضح بالأثر المشرقي، فهو لا يسترفد البيت الشعري بلفظِهِ، وإنما يكون راسخًا في ذهنه، فيستوحي منه المعنى، أو بعض الألفاظ التي تسعفه في أداء المراد، وتكشف عن غرضه، وقد يدل عليه بلفظةٍ تحيلنا على المعنى الشعري ونصه وقائله.

ومن ذلك قوله: "كتبت-أدام الله عزه- والنشاط أمنيةٌ تُزْوَى، أو طللٌ بِحُزْوى، والقلبُ صادٍ، والذُّكْرة التي تجذبُ الضُّلوع بِمرصاد، والوردُ روضَةُ أبي بصير، والشوقُ عصا قصير، وأشكو إلى الله من التقصير"(٣).

فقد استدعى الكاتب كنية الأعشى (أبو بصير)، وأسند (الروضة) له في قوله: "والوردُ روضةُ أبي بصير"، وفيه إشارة إلى قول الأعشى يصف روضة: في مجال الغزل بـ(هريرة): (من البسيط)

ما روضةٌ من رياض الحَزْن مُعْشِبةٌ خضــراء جــاد عليهــا مُسْـبِلٌ هَطِـلُ

يضـاحكُ الشـمسَ منهـا كوكـبٌ شـرِقٌ مُــؤزَّرٌ بعَمــيمِ النبــتِ مُكْتهــلُ

(١) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه ١/ ١٣٧، دار المعارف، القاهرة، الثالثة ١٩٨٦م.

(٢) البيتان لمرة بن محكان، شاعر إسلامي مقل، من شعراء الدولة الأموية: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، حماسة رقم(٦٧٥)، ٤/ ١٥٦٣، دار الجيل، بيروت ١٤١١هـ ١٩٩١م.

(٣) رسائل ابن أبي الخصال ص٥١. زوى الشيء: طواه. حزوى: اسم موضع. صاد: من صدى: إذا عطش. الذُّكرة: (بالضم) ضد النسيان.

يومً ا بأطيـبَ منهـا نشْـرَ رائحـةٍ ولا بأَحْسـنَ منهـا إذْ دنَـا الأصْـلُ(١)

فالكاتب هنا لم يسترفد الشعر، وإنما أشار إلى بعض معانيه وألفاظه التي أحالتنا على النص الشعري وقائله، وارتباط (الروضة) بأبي بصير هو الذي ذكرنا بهذا الشعر، وهو الذي جعلنا نفكر في أن الكاتب استدعاه أو استوحاه، ولو ذكر الروضة دون أبي بصير لم يكن هناك ارتباط. وهذه الصورة تكشف عن تعلق الكاتب بالشعر المشرقي، فهو يستوحي منه الصورة، أو المعنى، أو اللفظة، التي تسعفه في أداء المراد، وتكشف عن غرضه.

ومن ذلك -أيضا قوله من رسالة تعزية: "طالعته- أيده الله- وعندي على الغيبةِ مساهمةُ الشّاهد، وأرق السّاهر السّاهد، فما ثُكْلُهُ ثُكْلُ واحدٍ، إذا سلِمَ سلِمَ الجميع، ومتى أَلِمَ فبالكلِّ أَلَمٌ وَجيعٌ"(٢).

فقوله: (فما ثُكْلُهُ ثُكْلُ واحدٍ) من قول عبدة بن الطبيب: (من الطويل)

فمـا كـان قـيسٌ هُلْكُـهُ هُلـكُ واحـدٍ ولكنـــهُ بنيـــانُ قـــومٍ تهـــدَّما(٣)

إن معنى هذا النص الشعري يفيح أريجه ويطل بظلاله، وقد استطاع الكاتب بما يمتلك من أدوات فنية ومقدرة أدبية أن يستدعي هذه الصورة لخدمة غرضه، هذا الاستدعاء يوحي بأثر فقد هذا الابن وعلو منزلته عند أبيه، فلحزنهِ يحزنُ الجميع، ولألمه يتألم كل من حوله، وهذا يشف عن مكانة المعزَّى بين قومه وعلو قدره، وقد استطاع الكاتب أن يكشف عن قيمة هذا التراث الشعري حين استدعاه في نثره ووظفه توظيفا فنيا يشد من أزر الفكرة، ويقوي المعنى، ويتلاحم مع غرضه.

٦-**استدعاء الشخصية (العلم، الكنية، الموقف)** وتتجلى براعة الكاتب في هذه الصورة، ذلك أنه لم يسترفد الشعر المشرقي في رسالته، وإنما ينص على اسم الشاعر، أو لقبه، أو كنيته في سياق الرسالة، وقد يشير إلى أبيات تتضمن موقفًا معينا للشاعر يتسق مع مغزى رسالته، ويؤيد فكرتها.

ومن نماذجه قول ابن أبي الخصال من رسالة :"نعمْ نَعِمَ ناظِرُك، وأشرقتْ مطالِعُك ومَناظرك، وروَّضَ بادِيكَ وحاضِرُك، وسقتْك البروق، وتنكبتْ ساحاتِكَ الشُّهبُ الرّوق، فإنّ أَدَبكَ اليانعَ هبَّ هبوبَ النسيم، وخلصَ إليَّ خُلوص البُرْءِ إلى السقيم... فالآنَ حين آثرت على النَّصَب الراحة، وقلتُ له: ما قال لناقته بعد الحِسَاء ابن رَواحة، ونصبتُ من القُتر، وعطلْتُ قوسَهُ من الوَتَر... فتلك فوارسُ الأقلام لا تنتهز فُرَصا، وجوارحُها لاتُرِيغُ قنَصًا"(٤).

فهذا استدعاء بالشخصية والموقف، فالكاتب لم يذكر هنا شعرا، وإنما استدعى شخصية عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه- وما قاله لناقته في مسيره إلى مؤتة: (من الوافر)

---

(١) ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس) شرح وتعليق: د. محمد محمد حسين ص ٥٧، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية، القاهرة، ١٩٥٠م.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٩٧.

(٣) شعر عبْدة بن الطبيب، جمعه: د.يحيى الجبوري، ص٨٨، دار التربية للنشر، بغداد، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

(٤) رسائل ابن أبي الخصال ص ١٥٦-١٥٨. القُتْر: جمع قترة: حلقة الدرع.

إذا أَدّيتنـــــي وحملـــــتِ رَحْلـــــي مســـــيرةَ أربـــــع بعـــــد الحِسَـــــاء

فَشـــــأنُكِ أَنعـــــمٌ وخـــــلاكِ ذمٌ ولا أرجـــعْ إلـــى أهلـــي ورائـــي(١)

إن من إيجابيات هذه الصورة أنها قد تدفع بالمتلقي للتفتيش عن الشعر والموقف الذي قيل فيه، كما نجد أن الكاتب لم يسترفد الأبيات الشعرية وإنما أشار إليها، فربما كان في إيرادها طول لا يتناسب وحال من كتب إليه رسالته.

إن صورَ الشعر المشرقي في رسائل ابن أبي الخصال أكثر من أن تحصى(٢)، وهي تكشف عن تأثره الواضح بالمشرق، ووفرة محصوله الشعري منه، وتشف عن قدرته الإبداعية والنقدية؛ ذلك أنه يؤكد حسن اختياره للشعر الذي يعبر به عن غرضه، وبراعته في توظيفه في رسالته توظيفا فنيا يكشف عن شخصية متفردة، ناقدة، استطاعت أن تصل بين الفنون الأدبية، وتكسر الفجوة بين الشعر والنثر، وتقرب الشقة بينهما، فجاءت رسائله غنية، زاخرة، بما يؤكد أهميتها، وثراءها، وقيمتها الأدبية والفنية.

لقد كان المشرق قبلة الأندلسيين يتوجهون إليها في كل أمورهم، ويقيسون إليها أعمالهم وإبداعهم، فهو مهبط الرسالة، ومتنزل القرآن، وأرض الأجداد، ومنبع الثقافات، وموطن العربية الأول الذي ينهلون من موارده، ومع هذا كله فلا يصح للدارس أن ينظر إلى أدب الأندلس على أنه تقليد محض لا جديد فيه، فهذا افتراء وتضليل، وظلم كبير لأهل الأندلس، فبراعة الأندلسي وابتكاره واضحان في شتى المجالات والفنون، فلم يكن عالة على أدباء المشرق، وإن كان تأثر بهم، وقلدهم، واقتفى آثارهم، إلا أنه طوَّر، وجدَّد، وابتكر!.

---

(١) ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره: د. وليد قصاب، ص١٥١، دار العلوم للطباعة والنشر، جامعة الرياض ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٢) ينظر نماذج أخرى: رسائل ابن أبي الخصال ص ٦٣، ٦٤، ٧١، ٨٢ ، ٨٨، ٩٠،٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٤، ١٢٨، ١٣٢، ١٤٦ ،١٥٧، ١٦١، ١٦٨ ، ١٧٠، ١٨٠ ، ٤٨٤، وغيرها.

خاتمـــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم. وبعد:

فقد حاول هذا البحث أن يرسم صورة واضحة للأثر المشرقي في رسائل ابن أبي الخصال، وقد انتهى إلى النتائج التالية:

- تأثر ابن أبي الخصال بالمشارقة تأثرا واضحا، واحتفل بأساليبهم، فعارض بعضهم، ومنهم الحريري في بعض مقاماته، والمعري في ملقى السبيل، وابن نباتة في بعض خطبه، وهي نماذج فريدة تؤكد على حسن اختياره، وتكشف عن براعته، كما أثبت رأيه النقدي في بعض الكتاب كبديع الزمان والصابي، واستعان بالشعر المشرقي في رسائله.
- جاءت مقامة ابن أبي الخصال التي عارض بها الحريري في الوصف، وهي تتسم بطولها الواضح، وقد استطاع أن يرسم عدة مشاهد في مقامة واحدة، وأن يجمع بينها في إطار درامي يقنع المتلقي، وبدا واضحا أنه لم يعارض مقامة واحدة وإنما جاءت مقامته معارضة للمقامة الدمشقية، والتفليسية من مقامات الحريري.
- إن التشابه جد واضح بين المقامتين، من حيث اختيار الراوية الحارث بن همام والبطل أبي زيد السروجي، وقد أجاد ابن أبي الخصال حين جعل الحارث مشاركا في الأحداث إلى حد كبير، حيث تبدو إيجابية هذه الشخصية وتفاعلها مع الأحداث، فهو يسهم في إتمام الأحداث وتطورها، والدفع بحركة البطل إلى الأمام، وهو في هذا أقرب إلى الهمذاني من الحريري.
- البطل عند ابن أبي الخصال يشبه بطل مقامات الحريري، فهو عالم أديب يحتال على الناس بأدبه وعلمه، يظهر في المقامات في هيئة رثة، وَخَطَ الشيب رأسه، وحنى الدهر صعدته، يتلون في هيئات مختلفة حسبما تقتضيه الحيلة التي يحتالها، والفريسة التي يقتنصها، بغية استدرار عطف القوم ونيل عطاياهم.
- بدا التشابه واضحا بين ابن أبي الخصال وبين الحريري في التزام المحسنات البديعية، والحيل اللفظية، واللجوء إلى التضمينات، والإشارات والشخصيات التاريخية والأدبية التي يستعين بها في إثبات الفكرة، وترسيخ المعنى، ولعل الفارق بين الأسلوبين هو وضوح أسلوب ابن أبي الخصال مقارنة بأسلوب الحريري، إذ كانت العناية بالشكل في ذهنه وهو يصوغ مقاماته.
- سار ابن أبي الخصال على خطى المعري في ملقى السبيل في الشكل، فجاءت معارضته مرتبة على حروف المعجم أيضا، مستهلا بالنثر ثم أعقبه بالشعر في المعنى نفسه، وإن اختلف معه في عدد الحروف، فالمعري جعل الهمزة والألف حرفين، في حين أن ابن أبي الخصال ذكر الهمزة فقط، وترك حرف الألف.
- كما حذا حذوه في المضمون؛فجاءت ملقى السبيل ومعارضتها في الحكمة والموعظة الحسنة، والحض على طاعة الله تعالى، والتزود من التقوى والعمل الصالح،والدعوة إلى الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة والعمل لها،وقد أجاد فيها إجادة واضحة وأثبت قدرته الأدبية في مجاراة المعري.

- لابن نباتة عدد من الخطب التي يحض فيها على الجهاد، تدور حول التحذير من الدنيا، والتسابق إلى ميدان الجهاد، عارضها ابن أبي الخصال بخطبة واحدة طويلة بالقياس إلى خطب ابن نباتة، يغلب عليها الجانب الدعوي، فيدعو إلى الله - تعالى- مرغبا في الزهد في الدنيا، والتحذير منها، والتهافت على متاعها، وأخذ العبرة من الأمم السابقة، والعمل ليوم الحساب.
- ولابن أبي الخصال خطبة في الحض على قيام الليل تتسم بطولها المفرط كعادته في باقي خطبه عارض بها خطبة لابن نباتة في الموضوع ذاته، سالكا سبيل الوعظ، مذكرا الناس بالتقوى والعمل الصالح والتزود للآخرة.
- أما خطبته في يوم النحر فيذكر فيها فضل الأشهر الحرم ويوم عرفة، وفضل إهراق الدم في هذا اليوم الأغر، سالكا في هذا كله سبيل الوعظ، ثم ينهي خطبته الطويلة بالالتزام بكتاب الله، والحض على تلاوته وتدبره، مستشهدا في هذا كله بآي الذكر الحكيم التي تقوي ما يذهب إليه، وأحاديث النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- التي أكثر منها في خطبته بصورة لافتة. ولا علاقة لهذه الخطبة بخطبة ابن نباتة في عيد النحر غير أنها وضعت للتعليم، وتشابهت في العنوان، فجلها أحاديث نبوية، جامعة لخصال الخير، استشهد بها ابن أبي الخصال، تدعو المسلم إلى التحلي بمكارم الأخلاق، وتحض على التزود من العمل الصالح.
- اتسمت هذه الخطب جميعها ببعض الظواهر والسمات، وهي الاتجاه الوعظي، والسهولة والوضوح، والأخذ من القرآن الكريم، والغرض التعليمي، وشيوع الاستفهام، وتآلف المعاني وترابطها، وجاءت معانيها متآلفة مترابطة، يلفها جميعا ويربط بينها روح دينية واضحة، وجو إيماني، سيطر على نفس الكاتب وروحه، جعله يعبر عنه في هذه المواعظ الدينية التي فاضت بها قريحته.
- لم يقف تأثر ابن أبي الخصال بالتيار المشرقي عند حد المعارضة، بل تعدى ذلك إلى النقد وإصدار الآراء والأحكام النقدية في بعض كتاب المشرق، وفي رسائله رسالة فاضل فيها بين أبي الصابي وبديع الزمان، وهي تكشف لنا عن تتبع الأندلسيين للحركة الأدبية والنقدية في المشرق، وتعلقهم بآثاره وأخباره، وتؤكد على تأثر ابن أبي الخصال بمذهب بديع الزمان الفني في الكتابة، وتكشف عن الأثر المشرقي الواضح في رسائله وتأثره به.
- عني ابن أبي الخصال بالشعر المشرقي عناية بالغة، واحتفل به احتفالا واضحا في رسائله، استشهادا، وتضمينا، وحلا، وتلميحا، وهو يكشف عن تأثره الواضح بالمشرق، ووفرة محصوله الشعري لديه، ويشف عن قدرته الإبداعية والنقدية؛ ذلك أنه يؤكد حسن اختياره للشعر الذي يعبر به عن غرضه، وبراعته في توظيفه في رسالته توظيفا فنيا يكشف عن شخصية متفردة، ناقدة، استطاعت أن تصل بين الفنون الأدبية، وتعمق الإحساس بالتلاحم بين الأدبين، وتكسر الفجوة بين الشعر والنثر، وتقرب الشقة بينهما، فجاءت رسائله غنية، زاخرة، بما يؤكد أهميتها، وثراءها، وقيمتها الأدبية والفنية.

والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله - تعالى- على سيدنا محمد وآله.

فهرس المراجع

أولا- المراجع

- أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة: د.محمد رشدي حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤م.
- إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس: ابن عبد الغفور الكلاعي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية،عالم الكتب، بيروت، الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير: د. محمد رجب البيومي، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الملك سعود الإسلامية، السعودية ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه:د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان السابعة ١٩٩٢م.
- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الثقافة، بيروت، السادسة ١٩٨١م.
- تاريخ الأدب الأندلسي(عصر سيادة قرطبة):د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الثانية ١٩٦٩م.
- تاريخ النقائض في الشعر العربي: د.أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الثانية١٩٥٤م.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق:د. حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
- تعريف القدماء بأبي العلاء: تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار القضاعي، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، الأولى ٢٠١١م.
- التيار المشرقي في الأدب الأندلسي د. حسن عباس، دار الحضارة للطباعة، القاهرة ١٩٩٤م.
- حسن التوسل إلى صناعة الترسل: شهاب الدين محمود الحلبي: تحقيق ودراسة: د. أكرم عثمان يوسف، وزارة الثقافة والإعلام، العراق ١٩٨٠م.
- الحوار الأدبي بين المشرق والأندلس، المتنبي والمعري نموذجين: د.أيمن محمد ميدان، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ٢٠٠١م.
- ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس) شرح وتعليق: د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية، القاهرة، ١٩٥٠م.
- ديوان الإمام الشافعي، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ، الثانية ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه ، دار المعارف، القاهرة، الثالثة ١٩٨٦م.
- ديوان خطب ابن نباتة: شرح الشيخ طاهر أفندي الجزائري، مطبعة جريدة، بيروت١٣١١هـ.
- ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره: د. وليد قصاب، دار العلوم للطباعة والنشر، جامعة الرياض، الأولى ١٤٠١هـ-١٩٨١م .
- ديوان عمر بن أبي ربيعة، شرح ديوانه، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة،

القاهرة ، الأولى ١٣٧١هـ-١٩٥٢م.
- ديون كثير عزة، تحقيق:د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٣١٩هـ-١٩٧١م.
- ديوان مجنون ليلى: تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة ١٩٧٩م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسّام الشنتريني (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩م.
- رايات المبرزين وغايات المميزين لابن سعيد، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الأولى ١٩٨٧م.
- الرحلة في الأدب العربي: د.شعيب حليفي(كتابات نقدية)الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٢م.
- رسائل ومقامات أندلسية، تحقيق: د.فوزي سعد عيسى، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٩م.
- زَهر الآداب وثَمر الألباب: الحصري القيرواني، تحقيق: د.صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت ١٤١١هـ ١٩٩١م.
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة: أبو العباس ثعلب، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٦٣هـ-١٩٤٤م.
- شرح مقامات الحريري للشريشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة،١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م.
- شعر عبْدة بن الطبيب، جمعه: د.يحيى الجبوري، دار التربية للنشر، بغداد،١٣٩١هـ-١٩٧١م.
- شعر الكتاب في القرن الرابع الهجري: د. وفيقة الدخيل، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا: أبو العباس القلقشندي، الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م.
- فن المقامة في القرن السادس د. حسن عباس، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦م.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م.
- فهرسة ابن خير الإشبيلي، تحقيق: بشار عواد معروف، ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، الأولى٢٠٠٩م.
- القانون في ديوان الرسائل:علي بن منجب الصيرفي (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: د.أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.
- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان: أبو نصر الفتح ابن خاقان، تحقيق: د.حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الأردن، الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.
- الكافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي تحقيق: الحساني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، القاهرة، الثالثة ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان: إبراهيم الأحدب الطرابلسي، دار التراث، بيروت ١٣٠٧هـ- ١٨٩٠م.
- لسان العرب لابن منظور، دار المعارف، القاهرة، بدون.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، تحقيق:د. أحمد الحوفي، د.

بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٣م.
- مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته:د.مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، الثانية١٤٠١هـ ١٩٨١م.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي، تحقيق: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- المعارضة في الأدب العربي:د.إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة القاهرة، الأولى١٤٠١هـ- ١٩٨٠م.
- المعجِب في تلخيص أخبار المغرب:عبد الواحد المراكشي،تحقيق:محمد سعيد العريان،القاهرة ١٩٦٣م.
- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): ياقوت الحموي، تحقيق:د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الأولى١٩٩٣م.
- المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي لابن الأبار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨م.
- المُغرِب في حلى المغرب:ابن سعيد الأندلسي،تحقيق: د.شوقي ضيف،دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤م.
- مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني، شرح: محمد محيي الدين عبد الحميد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٢م.
- ملقى السبيل لأبي العلاء المعري (ت٤٤٩هـ)، قرأه وشرحه وعلق عليه: د.السعيد السيد عبادة، دار البصائر، القاهرة، الأولى ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- **من حديث المعارضات الأدبية: د.عبد الوارث الحداد، مطبعة السعادة، القاهرة، الأولى ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.**
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:الشيخ أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي٦٥٦هـ : د.نبيل خالد أبو رباح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م.
- **النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة: د. محمد غنيمي هلال،،، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٧م.**
- النموذج الإنساني في أدب المقامة:د.علي عبد المنعم،الشركة العالمية للنشر،لونجمان،القاهرة ١٩٩٤م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، تحقيق: د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان١٩٧٢م.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي: تحقيق: د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- **ثانيا- الدوريات**
- مجلة أبحاث اليرموك، الأردن، المجلد(١٣)، العدد الأول، ١٩٩٥م، (مواقف الكُتاب من مظاهر الانحراف السياسي والاجتماعي في الأندلس زمن ملوك الطوائف): سالم مرعي الهدروسي.
- مجلة الدارة السعودية، العدد الرابع، السنة (١٤)، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م(الظاهرة الشعرية في مقامات بديع الزمان الهمذاني) د. مصطفى إبراهيم حسين.
- مجلة عالم الكتب، مجلد (٢٧)، عدد (٥، ٦) ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م. (خطب ابن نباتة، الرؤية والفن) خالد بن محمد الجديع.
- مجلة كلية دار العلوم، القاهرة،عدد: (٣٩)، ٢٠٠٦م، (معارضة ملقى السبيل للمعري في الأندلس) د.أيمن ميدان.

Index of sources and references

First - references

- **The Impact of the Maqama on the Emergence of the Modern Egyptian Story: Dr. Muhammad Rushdi Hassan, The Egyptian General Book Organization, Cairo 1974.**
- **Refinement of the craft of speech in the arts of prose and its doctrines in the East and Andalusia: Ibn Abd al-Ghafour al-Kala'i, investigated by: Dr. Muhammad Radwan Al-Daya, The World of Books, Beirut, 2nd 1405 AH - 1985 AD.**
- **Andalusian literature between influence and influence: d. Muhammad Rajab Al-Bayoumi, Department of Culture and Publication, King Saud Islamic University, Saudi Arabia 1400 AH-1980AD.**
- **Andalusian literature, its subjects and arts: Dr. Mustafa Shakaa, House of Science for Millions, Beirut, Lebanon, the seventh, 1992.**
- **Badi' Al-Zaman Al-Hamadhani, the pioneer of the Arabic story and press article: Dr. Mustafa Al-Shaka'a, The Egyptian Lebanese House, Cairo, the first 1423 AH - 2003 AD.**
- **History of Andalusian Literature (The Age of Sects and Almoravids), House of Culture, Beirut, Sixth 1981 AD.**
- **History of Andalusian Literature (The Era of the Sovereignty of Cordoba): Dr. Ihsan Abbas, House of Culture, Beirut, 2nd 1969 AD.**
- **The History of Contradictions in Arabic Poetry: Dr. Ahmed Al-Shayeb, Al-Nahda Library, Cairo, 2nd 1954 AD.**
- **History of Literary Criticism in Andalusia: Dr. Muhammad Radwan Al-Daya, Al-Resala Foundation, Damascus, 2nd 1401 AH - 1981 AD.**
- **Editing inking in the manufacture of poetry and prose and explaining the inimitability of the Qur'an, Ibn Abi Al-Asba' Al-Masry, investigated by: Dr. Hefni Muhammad Sharaf, Committee for the Revival of Islamic Heritage, Cairo 1383 AH - 1963 AD.**
- **Introducing the ancients to Abu Al-Ala: investigation: Mustafa Al-Sakka and others, the Egyptian General Book Authority, Cairo 1406 AH-1986 AD.**
- **The Supplement to the Book of Connection by Ibn Al-Abar Al-Quda'i, achieved by Dr. Bashar Awad Maarouf, Dar al-Gharb al-Islami, Tunisia, the first, 2011.**
- **The oriental current in Andalusian literature d. Hassan Abbas, Dar Al-Hadara for Printing, Cairo, 1994.**
- **Good Tawassul to the Industry of Transmission: Shihab Al-Din Mahmoud Al-Halabi: Investigation and Study: Dr. Akram Othman Yousef, Ministry of Culture and Information, Iraq, 1980.**
- **Literary Dialogue between the Orient and Andalusia, Al-Mutanabi and Al-Maarri are two examples: Dr. Ayman Mohamed Medan, Dar Al-Wafa Ladonia Printing and Publishing, Alexandria 2001 AD.**
- **The Diwan of Imam Al-Shafi'i, investigated by Dr. Muhammad Abdel Moneim Khafagy, Library of Al-Azhar Colleges, Cairo, 2nd 1405 AH - 1985 AD.**

- **Jarir's Diwan with an explanation of Muhammad bin Habib, investigated by Dr. Noman Muhammad Amin Taha, Dar Al Maaref, Cairo, 3rd 1986 AD.**
- **Diwan of Ibn Nabatah's Sermons: Explanation of Sheikh Taher Effendi Al-Jazaery, Journal Press, Beirut 1311 AH.**
- **The Diwan of Omar bin Abi Rabia, an explanation of his Diwan, achieved by Muhammad Muhyi Al-Din Abdel Hamid, Al-Saada Press, Cairo, the first 1371 AH-1952 AD.**
- **Majnoon Laila's Divan: Investigation: Abdel-Sattar Ahmed Farrag, Nahdet Misr Library in Faggala, Cairo 1979.**
- **Debt a lot of pride, investigation: Dr. Ihsan Abbas, House of Culture, Beirut 1319 AH-1971AD.**
- **• Al-Zakhira in the Beauties of the People of the Island: Ibn Bassam Al-Shantarini (d. 542 AH), investigation: Dr. Ihsan Abbas, House of Culture, Beirut, 1979**
- **The banners of the distinguished and the goals of the distinguished, by Ibn Saeed, investigation: Dr. Muhammad Radwan Al-Daya, Tlass for Studies, Translation and Publishing, Damascus, the first, 1987 AD.**
- **The Journey in Arabic Literature: Dr. Shoaib Halifi (Q: Critical Writings) The General Authority for Cultural Palaces, Cairo 2002 AD.**
- **Andalusian Letters and Maqamat, Investigation: Dr. Fawzi Saad Issa, Mansha'at al-Maaref in Alexandria, 1989.**
- **The flower of literature and the fruit of the soul: Al-Husari Al-Qayrawani, investigated by: Dr. Salah Al-Din Al-Hawari, Al-Mataba Al-Asriyyah, Sidon, Beirut, the first 1421 AH - 2001AD.**
- **Explanation of Diwan Al-Hamasah by Al-Marzouqi: Investigation: Ahmed Amin and Abdel Salam Haroun, Dar Al-Jeel, Beirut 1411 AH 1991 AD.**
- **Explanation of the Diwan of Zuhair bin Abi Salma, work: Abu Al-Abbas Thalab, printed by the Egyptian Book House, Cairo 1363 AH-1944 AD**
- **Explanation of Al-Hariri's Maqamat Al-Shrishi, investigation: Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, The Modern Arab Foundation, Cairo, 1389 AH - 1969 AD.**
- **The poetry of the book in the fourth century AH: Dr. Wafiqa Al-Dakhil, King Abdulaziz Public Library, Riyadh 1421 AH - 2000 AD.**
- **Poetry of Abda bin Al-Tabib, compiled by: Dr. Yahya Al-Jubouri, Dar Al-Tarbeeh for Publishing, Baghdad, 1391 AH-1971AD.**
- **Sobh Al-A'sha in the construction industry: Abu Al-Abbas Al-Qalqashandi, Al-Dakhkira, The General Authority for Cultural Palaces, Cairo 2004.**
- **Art built in the sixth century d. Hassan Abbas, Dar Al Maaref, Cairo, 1986.**
- **Art and its Doctrines in Arabic Prose: Dr. Shawky Deif, Dar Al Maaref, Cairo, 1977.**
- **Indexing of Ibn Khair Al-Ishbili, achieved by: Bashar Awad Maarouf, and Mahmoud Bashar Awad, Dar Al-Gharb Al-Islami, the first 2009AD.**

- **The Law in the Diwan of Letters: Ali bin Munjib Al-Serafy (d. 542 AH), investigation: Dr. Ayman Fouad Sayed, The Egyptian Lebanese House, Cairo 1410 AH - 1990 AD.**
- **Qala'id al-Aqyan and the merits of notables: Abu Nasr al-Fath Ibn Khaqan, investigation: Dr. Hussain Youssef Khryush, Al-Manar Library, Jordan, the first 1409 AH 1989AD.**
- **Al-Kafi fi Al-Azad and Al-Rhymes by Al-Khatib Al-Tabrizi, Investigation: Al-Hassani Hassan Abdullah, Al-Khanji Library, Cairo, 3rd 1415 AH-1994AD.**
- **Revealing the Meanings and Explanation of the Messages of Badi Al-Zaman: Ibrahim Al-Ahdab Al-Tarabulsi, Dar Al-Turath, Beirut 1307 AH - 1890 AD.**
- **Lisan Al Arab by Ibn Manzur, Dar Al Maaref, Cairo, without.**
- **The Proverb in the Literature of the Writer and Poet: Dia Al-Din Bin Al-Atheer, investigated by: Dr. Ahmed Al-Hofi, d. Badawi Tabana, Nahdet Misr Library, Cairo 1973.**
- **Al-Hamadhani Society through its Maqamat: Dr. Mazen Al-Mubarak, Dar Al-Fikr, Damascus, 2nd 1401 AH 1981 AD.**
- **The Mirror of the Heavens and the Lesson of Al-Waqzan by Al-Yafi'i, achieved by: Khalil Mansour, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, Lebanon, 1417 A.H.-1997 A.D.**
- **The Opposition in Arabic Literature: Dr. Ibrahim Awadeen, Al-Saada Press, Cairo, First 1401 A.H. - 1980 A.D..**
- **The admirer in summarizing the news of Morocco: Abdel Wahed Al-Marrakchi, investigation: Muhammad Saeed Al-Arian, Cairo 1963.**
- **Dictionary of Writers (Guiding the Arab to Knowing the Writer): Yaqout Al-Hamawi, investigated by: Dr. Ihsan Abbas, Dar al-Gharb al-Islami, Beirut, Lebanon, the first, 1993 AD.**
- **The Lexicon in the Companions of the Judge Imam Abi Ali Al-Sadafi by Ibn Al-Abar, The General Egyptian Book Organization, Cairo 2008.**
- **The Maghreb in Morocco's Jewelry: Ibn Saeed Al-Andalusi, investigation: Dr. Shawqi Dhaif, Dar Al-Maaref, Cairo 1964.**
- **Maqamat Abi al-Fadl Badi al-Zaman al-Hamadhani, Explanation: Muhammad Mohi al-Din Abd al-Hamid, The Egyptian General Book Authority, Cairo 2012.**
- **The Path to the Path of Abi Al-Ala Al-Maari (d. 449 AH), read, explained and commented on by: Dr. Al-Saeed Al-Sayyid Ubadah, Dar Al-Baseer, Cairo, First 1428 AH-2007AD.**
- **From the hadith of literary oppositions: Dr. Abdul-Warith Al-Haddad, Al-Saada Press, Cairo, First 1407 AH - 1986 AD.**
- **The goodness of the fresh branch of Andalusia: Sheikh Ahmed bin Al-Maqri Al-Tilmisani, investigation: Dr. Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut 1408 AH - 1988 AD.**
- **Criticism of prose in the critical Arab heritage until the end of the Abbasid era 656 AH: Dr. Nabil Khaled Abu Rabah, Egyptian General Book Organization, Cairo 1993.**
- **Human Models in Comparative Literary Studies: Dr. Muhammad Ghonimi Hilal,,, Dar Nahdet Misr, Cairo, 1957 AD.**

- **The Human Model in the Literature of the Maqamah: Dr. Ali Abdel Moneim, International Publishing Company, Longman, Cairo 1994.**
- **Deaths of Notables and the News of the Sons of Time by Ibn Khalkan, achieved by: Dr. Ihsan Abbas, House of Culture, Beirut, Lebanon 1972.**
- **The orphan of time in the merits of the people of the age by Al-Thaalibi: Investigation: Dr. Mufid Qumeiha, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, Lebanon, the first 1403 AH - 1983AD.**

Secondly - periodicals

- **Journal of Yarmouk Research, Jordan, Volume (13), Issue One, 1995 AD, (Writers' Attitudes towards Aspects of Political and Social Deviation in Andalusia in the Time of Sectarian Kings): Salem Mar'i Al-Hadrosi.**
- **Al-Dara Saudi Journal, Fourth Issue, Year (14), 1409 AH - 1989 AD (Poetic Phenomenon in the Maqamat of Badi' al-Zaman al-Hamadhani) d. Mustafa Ibrahim Hussein.**
- **Al-Majalla Magazine, Fifth Year, Issue (61), Ramadan 1381 AH - 1962 AD (established from the literature of life) Ibrahim Al-Ibiari.**
- **World of Books Magazine, Volume (27), Number (5, 6) 1427 AH - 2006 AD. (The Speeches of Ibn Nabatah, Vision and Art) Khalid bin Muhammad Al-Judaya.**
- **Journal of the Faculty of Dar Al Uloom, Cairo, No.: (39), 2006 AD, (opposition of Mulqa Al-Sabeel to Al-Maarri in Andalusia) Dr. Ayman Medan.**

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
مقدمة.	٨٣٧
تمهيد:	٨٣٩-٨٤١
أولا- التأثير المشرقي في الأدب الأندلسي	٨٣٩
ثانيا- لماذا ابن أبي الخصال؟.	٨٤٠
المبحث الأول- مقامة لابن أبي الخصال عارض بها الحريري في بعض مقاماته	٨٤٢-٨٥١
أولا- كلمة عن فن المعارضة.	٨٤٢
ثانيا- معارضة ابن أبي الخصال بعض مقامات الحريري.	٨٤٣
ثالثا- رؤية نقدية:	٨٤٤
١- شخصيتا الراوي والبطل.	٨٤٤
٢- بروز الكدية والحيلة في مقامة ابن أبي الخصال.	٨٤٦
٣- موضوع المقامة.	٨٤٧
٤- الأسلوب.	٨٤٩
٥- توشيح المقامة بالشعر.	٨٥٠
المبحث الثاني- معارضة ملقى السبيل للمعري.	٨٥٢-٨٦٠
أولا- البناء الفني:	٨٥٢
١- من حيث الشكل.	٨٥٢
٢- من حيث المضمون.	٨٥٤
ثانيا- ظواهر أسلوبية:	٨٥٦
أ- السهولة والوضوح.	٨٥٦
ب-التأثر بالقران الكريم اقتباسا وتضمينًا.	٨٥٧
ج- لزوم مالا يلزم.	٨٥٩
ثالثا- الأوزان والقوافي.	٨٦٠
المبحث الثالث: معارضة الكاتب بعض خطب ابن نباتة	٨٦١-٨٧٣
أولا - خطب ابن نباتة في الحض على الجهاد.	٨٦١
ثانيا- خطبة ابن أبي الخصال في الحض على الجهاد.	٨٦١
ثالثا- البناء النفسي والفكري:	٨٦٢
١- من حيث الاستهلال.	٨٦٢
٢- من ناحية المضمون.	٨٦٢
٣- الختام.	٨٦٥
رابعا- خطب أخرى:	٨٦٦
١- خطبة في الحض على قيام الليل.	٨٦٦
٢- خطبة يوم النحر.	٨٦٨
خامسا- رؤية فنية:	٨٦٩
١- بروز الاتجاه الوعظي.	٨٦٩
٢- السهولة والوضوح.	٨٦٩
٣- الأخذ من القرآن الكريم.	٨٧٠
٤- الغرض التعليمي.	٨٧١
٥- الاستفهام.	٨٧٢
٦- الألوان البديعية.	٨٧٢
٧- تآلف المعاني وترابطها.	٨٧٣
المبحث الرابع:آراء نقدية في بعض كتاب المشرق	٨٧٤-٨٨٢
رؤية نقدية:	٨٧٥
أولا- لماذا الصابي وبديع الزمان؟	٨٧٥
ثانيا- ابن أبي الخصال يقدم الصابي ويؤخر بديع الزمان.	٨٧٥
ثالثا- المفاضلة بين الصابي والصاحب أَوْلى.	٨٧٧
رابعا- رأي ابن أبي الخصال في بديع الزمان ومقاماته.	٨٧٩
خامسا– ابن أبي الخصال يتبع طريقة بديع الزمان في الكتابة مع ثورته عليها.	٨٨١
سادسا- تتبع الأندلسيين لآثار المشارقة الأدبية ومذاهبهم الفنية والنقدية.	٨٨٢
المبحث الخامس: الشعر	٨٨٣-٨٨٩
خاتمة.	٨٩٠
فهرس المراجع.	٨٩٢
فهرس الموضوعات.	٨٩٣